عصبة ذو الشعر الأحمراء

مغامرات شيرلوك هولمز

مغامـــرة
عصبة ذو الشعر الأحمراء

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
محمد يحيى عبدالكريم

مقدمـة

تتسم قصص شيرلوك هولمز للكاتب آرثر كونان دويل بأهمية عامة وأكاديمية على حد سواء. ففي الاثنتى عشرة سنة الماضية، تطور النقد الموجه إليها ليصبح حواراً بناء ومستمراً.

ويعرض هذا الكتاب أهم قصص شيرلوك هولمز وأكثرها تشويقاً. هذا بالإضافة إلى مجموعة من المواد الأخرى التي من شأنها مساعدة القارئ على الفهم. منها نبذة عن حياة دويل وأعماله.

حول النص:

ما من نص نموذجي لقصص شيرلوك هولمز. وتعتبر المجموعة الإنجليزية المجموعة الأبرز، وهي تتألف من مجلّدين نشرهما موري علمي ١٩٢٨م و١٩٢٩م على حياة دويل؛ بينما نشر- وبلدي عام ١٩٣٠م المجموعة الأمريكية الأبرز بعد وفاة دويل. لكن الكثير من

الأخطاء والتناقضات يشوب النسختين. ويبدو أن ناشري الطبعة الأمريكية حاولوا تصويب الأخطاء الفاضحة في النسخة الإنجليزية، لكنهم أدخلوا أيضاً بعض الأخطاء المطبعية الجديدة وعدلوا أحياناً كلمات وتعابير إنجليزية بدت لهم غامضة، أو اعتبروها خطأ غير صحيحة.

- يرتكز نص قصص شيرلوك هولمز في هذا الكتاب على الطبعات الإنجليزية الأولى. وقد نُشر العديد من القصص في بداية الأمر تحت عنوان "مغامرات..".: فنحصل مثلاً على "مغامرات الياقوت الجمري" أو "مغامرات الزمرة المرقطة". وقد اعتمد دويل النسخ الموجزة والأكثر تداولاً لهذه القصص، أو سمح لتأثر به القيام بذلك في طبعة العامة ١٩٢٨م.

شيرلوك هولمز:

ظهر شيرلوك هولمز، أول "رجل تحري استشاري غير رسمي" في العالم، في الأدب الإنجليزي قبل نحو قرن تقريباً، وسرعان ما فرض نفسه في الثقافة الإنجليزية عامة، وأصبح أحد أشهر الشخصيات الأدبية، وما زال يحتفظ بهذه المكانة حتى اليوم.

والصورة المتداولة عنه هي صورة رجل طويل القامة، نحيل الوجه، بهي الطلعة، يعتمر قبعة خاتل الأبانل، وفي فمه غليون وعلى كتفيه كاب. وسيكتشف القارئ في مجموعة القصص هذه شخصية شيرلوك هولمز على حقيقتها.

السير آرثر كونان دويل:

ذات يوم من عام ١٩٠٧م، طلبت إحدى السيدات من السيد آرثر كونان دويل نصيحة تحرية، قائلة إن نسيبها المفضل اختفى قبل أسابيع في لندن، وقد حير لغزه الشرطة من غير أن تعرف ماذا حل به!

قرر دويل أن يستلم القضية كما اعتاد أن يفعل بين الحين والآخر، فنجح في غضون ساعة في حل اللغز من دون أن يبرح مكانه. وكتب يقول: "نسيبك موجود في اسكتلندا. ابحثي عنه في غلاسكو أو أدنبره وأؤكد لك أنك ستجدينه هناك. "وبالفعل، عثر عليه في اسكتلندا بعد أن مر بلندن. إنما استطاع دويل فك اللغز بهذه السرعة بمجرد "بحث المسألة من منظار السيد هولمز".

لقد أثبتت هذه الطرفة وغيرها الكثير أن ثمة نفحة من روح

شيرلوك هولمز في آثر كونان دويل. فهو شأنه شأن شخصيته البارزة، متنبه لأدنى التفاصيل، ويتمتع بمخيلة واسعة وخبرة اجتماعية وفكرية غنية وميل إلى الدراما. والأهم من ذلك قدراته اللاذعة والتحليلية. وهو لم يكتسب قدراته التحليلية عن طريق الصدفة، بل ساعدته في ذلك دراسته وخبرته المهنية، في سنوات الدراسة المدرسية الثمان أولاً وسنوات دراسة الطب الخمس في جامعة أدنبره ثانياً. وقد مارس بعد تخرجه من الجامعة الطب مدة عشر سنوات، قبل أن يتفرغ للكتابة. ويبدو أن تدريبه الطبي كان وراء تصوره الخاص لشيرلوك هولمز كرجل تحريات علمي يحل القضايا بناءً على قدراته الخاصة، وكمفتش يتقن المبادئ التحليلية وأهمية التفاصيل في آن. ويتطلب التشخيص الطبي الدقيق (التحري) القدرة على التحليل المنطقي وعين الطبيب الخبيرة لملاحظة العوارض الكامنة (المفاتيح) وراء المرض. وكما كتب أحد أساتذة كونان دويل في أدنبره "إن رؤية الاختلافات البسيطة وتقديرها بدقة وحكمة هي العامل الحاسم في إجراء تشخيص طبي ناجح. في الحياة العادية، نجد شيرلوك هولمز الذي يذهل صديقه واتسون. وفي إطار التدريب المتخصص نجد شيرلوك هولمز رجل

التحريات الماهر".

إن صاحب هذا أثر أي كان، باعتراف كونان دويل، نموذج شيرلوك هولمز نفسه. فالدكتور جوزف بيل اشتهر بقدرته على اكتشاف، ليس الشكاوي الطبية فحسب، بل أيضاً انشغالات مرضاه وخلفياتهم مع أنهم كانوا غرباء عنه. وأصبح كونان دويل معاون بيل لإدارة ملفات مرضاه. وكتب لاحقاً يقول: "سنحت لي الفرصة لدراسة طرقه في العمل، فتبين لي أنه غالبا ما كانت نظراته الخاطفة كافية ليعرف عن مرضاه أكثر مما عرفته أنا من خلال أسئلتي".

وقس على هذه الحادثة حوادث كثيرة تظهر قدرات بيل التحليلية. وظل دويل يذكر مدى تأثير هذه الحوادث حتى بعد سنوات في مطلع حياته كمؤلف، عندما قرر انتهاج خط قصص التحري. وهكذا ظهرت شخصية شيرلوك هولمز في "دراسة في اللون لفرمزي" (١٨٨٧م).

إن قدرة كونان دويل التحليلية الناجمة عن تدريبه الطبي كانت السمة البارزة في شخصيته. وقد تجلت بنوع خاص في حملاته التحرية العامة أولاً لصالح جورج إيدلجي ومن ثَمَّ لصالح أوسكار سلايتر، اللذين وقعا ضحية الرهاب البريطاني، ففأتهما بارتكاب جرائم هما براء

منها وأودعا السجن. وتجلت أيضاً في استشرافه قبل الحرب العالمية الأولى مخاطر فرض حظر بالغواصات على إنجلترا. وتجلت أخيراً خلال الحرب في دعوته إلى تزويد الجنود والبحارة في البحر بسترات إنقاذ وفي ابتكاره شيفرة سرية للتواصل مع سجناء الحرب البريطانيين. وكان آرثر كونان دويل تماماً وشيرلوك هولمز نموذجاً للعقلانية في حقبة الحكم الفيكتوري والإدواردي.

لكن خلافا لهولمز، لم يكتف دويل بالعقلانية، بل اعتبر نفسه داعية للروحانية (أي الإيمان بأن أرواح الأموات تحيا بعد مماتهم وقادرة على التواصل عبر جلسات خاصة أو بالتخاطر أو ما شابه مع الأحياء)، وهي قضية كرس سنواته الأخيرة في سبيلها. وقد نشر أول مقالة له حول الظواهر الروحية عام ١٨٨٧م أي سنة نشر "دراسة في اللون القرمزي"، وانضم إلى الجمعية البريطانية للأبحاث الروحية "عام ١٨٩٣م في موازاة نشر "مذكرات شيرلوك هولمز "في مجلة" ستراند.

أثرت هذه الكتابات والتوجهات على سمعة دويل بين معاصريه من دون أن تنعكس على قصص شيرلوك هولمز. إلا أنها تجسد منحى رومنطيقياً أعمق وأكثر تأصلاً في شخصية دويل، مما أثر بشكل أو بآخر

على قصص هولمز. وكان لوالدته ماري فولي دويل اليد الطولي على ما يبدو في بروز هذا المنحى نظراً إلى علاقتها الوثيقة (خلافاً لوالده الذي لم يلعب دوراً بارزاً في تربيته يسبب مشاكله الصحية).

طغت شهامة دويل وتثمينه للشرف على القصص التاريخية التي كان يفخر بها، لا سيما "الشركة البيضاء" (١٨٩١م) و"السير يغيل" (١٩٠٦م)، والتي تروي مغامرات فروسية في القرن الرابع عشر في إنجلترا. كما برز هذا الحس في العديد من القضايا التي نذر في سبيلها طاقاته ومهاراته.

ويشاطر هولمز وواتسون دويل تمسكه الراسخ بأصول الشهامة وقيم الرجل النبيل وواجباته، الأمر الذي يسمح بنصرة الحق والدفاع عن المخطئين وحماية الضعفاء.

ولا شك أن أصول الشهامة والشرف تعني أيضاً أصول التصرف مع النساء وهي علاقات طرحت تحديات كبيرة لكل من دويل وهولمز. وكان دويل من دعاة إصلاح قانون الطلاق. أما على الصعيد الشخصي، فبعد ٧ سنوات من الزواج و٣ سنوات على إصابة زوجته بذات الرئة، وقع سنة ١٨٩٧م في غرام جين ليكي التي بادلته الحب

وتمسكه بالشرف. وقد عاشا معاً قصة حب سرية مدة عشر سنوات قبل أن يعقدا قرانهما بعد سنة على وفاة زوجة دويل، وكان هذا بنظره التصرف الشريف الوحيد الذي يمليه عليه ضميره.

كذلك كان تصرف شيرلوك هولمز حيال النساء شهماً مع أن معظم مشاكله معهن كانت مهنية أكثر منها شخصية. وقد برزت في هذا السياق مناورات! يرين أدلير في "فضيحة في بوهيميا" التي أغنت شخصية هولمز الأسطورية.

وكان دويل بروحه التحليلية وهولمز بروحه التحليلية المفرطة يعتبران أن التحقيق والتفسير العقلانيين قد يلتبسان إذا ما أعمتهما الثقة بالفرضيات الشخصية، وغالباً ما تكون الفرضيات المضللة فرضيات أخلاقية.

وقد برز جانب مثير من حياة دويل الشخصية في وصفه للأيام التي أمضاها برفقة الجيش في أفريقيا الجنوبية خلال حرب البوير عام ١٩٠٠م؛ حيث عثر على جندي أسترالي قتل في معارك اليوم السابق لكن أياً من فرق الإنقاذ لم تكتشف جثته.

عصبة ذو الشعر الأحمراء

– في يوم من أيام الخريف من العام الماضي، قصدت صديقي السيد شيرلوك هولمز فوجدته مستغرقاً في حديث مع رجل مسن ذي شعر أحمر ناري. اعتذرت على مقاطعتي لهما وهممت بالرحيل، عندما أعادني هولمز بإلحاح إلى الغرفة، مغلقاً الباب ورائي.

– قال بلطف:

"لقد أتيت في الوقت المناسب، عزيزي واتسون".

– "هذا، يا سيد ويلسون، شريكي ومساعدي في العديد من القضايا الناجحة، ولا شك عندي أنه سيساعدني كثيراً في قضيتك أيضاً.

– نهض السيد من كرسيه وانحنى محيياً وعلى وجهه نظرة تساؤل.

– قال لي هولمز: "أعرف يا عزيزي واتسون أنك مولع مثلي بكل ما هو غريب".

– فأجبت: "بالفعل، لطالما اهتممت كثيراً بكل قضاياك".

– "لكن عليك الاقتناع بوجهة نظري وإلا استمريت في تكرار الواقعة تلو الواقعة إلى أن ينهار منطقك وتقر بأني على حق. حسناً، لقد اتصل بي السيد جابير ويلسون هذا الصباح وروى لي ما وصفه بأنه أمر مذهل، فأصغيت إليه لبعض الوقت.

سبق أن سمعتني أقول إن أغرب الأشياء وأكثرها فرادة غالباً ما تتصل، ليس بالجرائم الكبيرة بل بالصغيرة منها، وأحياناً حيث يكون هناك مجال للشك في وقوع الجريمة فعلاً.

واستناداً إلى ما سمعته، لا يمكنني أن أجزم الآن ما إذا كان الأمر يتعلق بجريمة أم لا؛ إلا أن مجريات الأحداث تعد بأغرب القضايا التي تعاملت معها حتى الآن. هلا أعدت رواية القصة لو سمحت سيد ويلسون؟

أعذرني أن كررت الطلب، ليس فقط لأن صديقي الدكتور واتسون فوت عليه البداية، بل أيضاً لأن غرابة القصة تدفعني إلى ترقب أدنى التفاصيل التي تتلفظ بها شفتاك".

– نفخ الزبون صدره بشيء من الفخر وأخرج صحيفة وسخة ومتجعدة من جيب معطفه. ثم نظر إلى عمود الإعلانات محنياً رأسه فوق الجريدة المفتوحة على ركبتيه، بينما رحت أنا أراقبه. ومع أنني راقبته جيداً، لم أجد فيه ما يلفت الانتباه باستثناء رأسه الأحمر وهيئته الحزينة وعدم الرضى في تقاسيم وجهه.

– استوى السيد جابيز ويلسون في كرسيه وإصبعه مصوب إلى الجريدة وعيناه على صديقي.

– سأل: "قل لي بحق الله كيف عرفت كل المعلومات التي تملكها عني؟

كيف عرفت مثلاً أني كنت أزاول عملاً يدوياً؟

صحيح، لقد بدأت أعمل كنجار سفن".

– "من يديك يا عزيزي. فيدك اليمنى أكبر من يدك اليسرى بكثير. ذلك أنك كنت تعمل بها مما جعل عضلاتها أبرز".

– "والصين؟"

– "من السمكة المنقوشة فوق معصمك الأيمن مباشرة والتي لا

تتوفر إلا في الصين. فقد قمت بدراسة صغيرة حول العلامات المنقوشة وساهمت في الأدبيات حول هذا الموضوع.

أضف أني عندما أرى عملة صينية تتدلى من سلسلة ساعتك، يصبح الموضوع أسهل.

- فضحك السيد جابيز ويلسون ضحكاً شديداً.

وقال: "اعتقدت للوهلة الأولى أنه ذكاء منك، لكن الأمر ليس كذلك كما أرى".

- فأجاب هولمز: "تجعلني أعتقد بهذا أني أخطأت في الشرح لك. ألم تجد الإعلان بعد سيد ويلسون؟"

- أجاب واضعاً إصبعه الأحمر الثمين عند منتصف العمود: "ها هو. هكذا بدأ كل شيء. اقرأه بنفسك سيدي".

- تناولت الجريدة وقرأت:

- "إلى عصبة الرؤوس الحمراء:

- بناء على رغبة المرحوم إسقيا هوبكنز، لبنان، بنسلفانيا، الولايات المتحدة الأمريكية، باب الترشيح مفتوح الآن لعضو جديد في العصبة

مقابل أجر قدره أربعة باوندات في الأسبوع لتأدية خدمات اسمية بحتة. كل الرجال ذوي الرؤوس الحمراء والسليمي العقل والجسم والبالغين واحداً وعشرين سنة وما فوق مخولون لترشيح أنفسهم.

تقبل الطلبات شخصياً نهار الإثنين في تمام الساعة الحادية عشرة لدى السيد دونكان روس في مكاتب العصبة، ٧ بوبس كورت، شارع فليت".

– صرخت بعدما قرأت الإعلان مرتين: "وما معنى هذا كله؟"

– تضعضع هولمز في كرسيه كما اعتاد أن يفعل عندما يكون مستغرقاً في التفكير. "حدثنا عن نفسك، سيد ويلسون، عن عائلتك، وعن وقع هذا الإعلان عليك. ولو سمحت، دكتور، أن تدون اسم الجريدة وتاريخها".

– "مورنينغ كرونيكل، ٢٧ نيسان (أبريل) ١٨٩٠م. أي قبل شهرين".

– "حسناً. تفضل سيد ويلسون".

– قال جابيز ويلسون وهو يجفف جبينه: "كما قلت لك سيد

شيرلوك هولمز، أملك محل رهنيات صغير في ميدان كوبورغ قرب وسط المدينة. مجرد محل صغير كنت أستخدم فيه معاونين، لكني لم أعد أحتفظ إلا بواحد اليوم؛ وقد وافق على تقاضي نصف أجر لأنه يود التمرس في المهنة".

- سأل شيرلوك هولمز: "ما اسم ذلك الشاب المحب".

- "يدعى فينسنت سبولدينغ. باستطاعته تحسين أدائه وجنى ضعف ما أدفعه له حالياً. لكنه راضٍ فلم أتلاعب بأفكاره؟"

- "لا شك أن معاونك مذهل كما إعلانك".

- فأجاب ويلسون: "لكنه لا يخلو من السيئات أيضاً".

- "ما زال عندك على ما أظن؟"

- "نعم سيدي. هو وفتاة في الرابعة عشرة تتولى الطبخ وتدبير الأمور المنزلية. هذا كل ما لدي في منزلي لأني أرمل ولم تكن لي يوماً أسرة. وصلني هذا الإعلان إلى مكتبي في مثل هذا اليوم قبل ثمانية أسابيع يحمله معاوني قائلاً:

- "أرجو من الله. سيد ويلسون، لو خُلقت ذا رأس أحمر".

- فسألته: "لم؟"

- "وتسأل لم؟

ثمة موقع شاغر في عصبة الرؤوس الحمراء وهذا بمثابة ثروة صغيرة لأي شخص يفوز بالترشيح وأعتقد أن المرشحين قلة مقارنة مع المواقع الشاغرة".

- "الواقع، سيد هولمز، إني رجل ملازم بيته جداً لدرجة أن عملي يأتي إليّ بدل أن أذهب أنا إليه.

- فتح عينيه وسأل: ألم تسمع أبداً بعصبة الرؤوس الحمراء؟"

- "لا".

- "غريب، لأنك مؤهل للمنصب الشاغر".

- "لا أخفي عنكما أن أكثر ما لفت انتباهي هو تراجع أعمالي منذ عدة سنوات، ولن يضرني أن أجني بضع مئات إضافية.

- وبـادرت إلى سؤاله: "لكن لا شك أن الملايين سيقدمون ترشيحهم أيضا".

- أجاب: "ليس بقدر ما تظن لأن الأمر محصور باللندنيين

الراشدين".

– لا شك أنكما تريان لون شعري الغني. وكانت لي فرصة وافرة للفوز بالمنصب. وبما أن فينسنت سبولدينغ مطلع على الأمر، أمرته بإقفال المحل ومرافقتي لأجرب حظي.

– "لن يتكرر أبداً هذا المشهد سيد هولمز! لقد تدفق ذوو الرؤوس الحمراء إلى وسط المدينة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، رداً على الإعلان. فاكتظ شارع فليت بالرؤوس الحمراء من كل تدرجات اللون الأحمر، القشي والليموني والبرتقالي والقرميدي ولون الكلب الأيرلندي والكبدانى والطيني؛ لكن قلة فقط من ذوي الصبغة النارية الحقيقية. وقد عجت بهم السلالم، بعضهم صعوداً مفعمين بالأمل وبعضهم الآخر نزولاً وقد تملكهم اليأس. شققنا طريقنا إلى أن وصلنا بعد قليل إلى المكتب".

– قاطع هولمز زبونه عندما توقف هذا الأخير لبرهة يسترجع ذاكرته: "يا لها من تجربة مثيرة للاهتمام".

– كان المكتب خالياً إلا من كرسيين خشبيين وطاولة من خشب الصنوبر، جلس خلفها رجل صغير ذو رأس أكثر احمراراً من رأسي. لما

جاء دورنا، أبدى الرجل اهتماماً بي أكثر مما أبداه لغيري. فأغلق الباب وراءنا كمن يريد مكالمتنا على انفراد.

– قال معاوني: "أعرفك على السيد جابيز ويلسون وهو يريد تقديم ترشيحه للعصبة".

– فأجاب الآخر: "إنه خير مرشح! إنه يفي بكل الشروط. لم أر ما يشبه هذا منذ وقت طويل".

– تراجع قليلاً إلى الخلف، أمال رأسه وراح يتأمل شعري إلى أن شعرت بالحياء. ثم تقدم فجأة وشد على يدي ليهنئني بحرارة على نجاحي.

– ثم أمسك شعري بكلتا يديه وراح يشده حتى صرخت ألماً. تقدم بعدها إلى النافذة وصرخ بأعلى صوته إن المنصب لم يعد شاغراً. فعلت صرخات الاستهجان بين الحشود التي سرعان ما تبددت في كل الاتجاهات حتى خلت من الرؤوس الحمراء، إلا من رأسي ورأس المدير.

– عرفني هذا الأخير على نفسه:

"أدعى السيد دونكان روس وأنا واحد من المستفيدين من

الصندوق الذي تركه محسننا الخير. هل أنت متزوج سيد ويلسون؟ ألديك أسرة؟"

- أجبت بالنفي. فأصيب عندها بخيبة أمل.

- "يا إلهي! إن الهدف من الصندوق هو طبعاً توسيع انتشار الرؤوس الحمراء. ويؤسفني أنك لا زلت أعزب".

- "أتلفني كلامه، سيد هولمز، لأني افتكرت أني فوت عليّ الفرصة. لكنه قبل ترشيحي بعد التفكير لبضع لحظات.

- ثم سألني: "متى سيكون بإمكانك مباشرة العمل؟"

- "ما الدوام؟"

- "من العاشرة حتى الثانية".

- "حسناً. والأجرة؟"

- "أربع باوندات في الأسبوع".

- "وطبيعة العمل؟"

- "اسمي بحت. عليك ملازمة المكتب أو أقله البناية طيلة الدوام".

– "لكن ماذا عن طبيعة العمل؟"

– "نسخ موسوعة بريتانيكا لا سيما المجلد الأول منها بأسرع وقت. عليك أن تُحضر بنفسك الحبر والأقلام والورق، بينما نؤمن لك نحن الطاولة والكرسي. أيمكنك المباشرة غداً؟"

– أجبت: "طبعاً".

– "إلى اللقاء إذاً، سيد ويلسون".

– "أمضيت النهار بأكمله أفكر في الموضوع إلى أن تراجعت معنوياتي في المساء. فبذل فينسنت سبولدينغ قصارى جهده للترويح عني. لكني قررت رغم كل شيء في الصباح التالي أن أجرب حظي.

– "كم تفاجأت وفرحت أن كل شيء كان على ما يرام. فقد أعدت الطاولة لي خصيصاً وحضر السيد دونكان روس ليتأكد من حسن سير العمل. أشار إليّ بالبدء بحرف الألف ثم غادر. إلا أنه كان يعود بين الفينة والفينة ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

– تكرر هذا المشهد يوماً بعد يوم وأسبوعاً تلو الآخر. فكنت أصل صباحاً في تمام العاشرة وأغادر في الثانية من بعد الظهر.

وشيئاً فشيئاً، لم يعد السيد دولكان روس يحضر إلا بعض المرات صباحاً إلى أن انقطعت زياراته كلياً. ومع ذلك، لم أجرؤ أبداً على التغيب عن الغرفة ولو للحظة.

– مرت ثمانية أسابيع على هذا النحو، كتبت خلالها عن رؤساء دور العبادة والرماية بالسهام والدروع والهندسة. وفجأة، انهار كل شيء".

– "كل شيء؟"

– "نعم، سيدي، صباح اليوم بالذات، ذهبت إلى عملي كالمعتاد في العاشرة. لكني وجدت الباب مقفلاً وقد علقت في وسطه بطاقة صغيرة إليك ما كُتب عليها".

– وأخرج ورقة كرتون صغيرة بحجم ورقة صغيرة كُتب عليها:

– لقد تم حل عصبة الرؤوس الحمراء ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٠م

– قرأت وشيرلوك هولمز الخبر المقتضب بعناية وما كان منا إلا أن انفجرنا ضاحكين. فصرخ زبوننا:

علام تضحكان؟

إذا كان الضحك فقط ما تحسنان القيام به، فأجدى بي أن أذهب إلى

مكان آخر".

– فأجاب هولمز مطمئنا ومعيدا إياه إلى كرسيه بعد أن نهض منه: "لا، لا، لن أفوت على قضيتك مهما كان الثمن.

لكن ثمة شيئا مضحكا فيها. هلا قلت لي ماذا فعلت لما وجدت البطاقة على الباب؟"

– "صعقت سيدي. ولم أعرف ماذا أفعل. فقصدت المالك الذي يقطن في الطابق الأرضي وسألته عما حل بعصبة الرؤوس الحمراء. فقال إنه لم يسمع بها من قبل. ثم سألته عن السيد دونكان روس.

– آه، ذاك الذي يدعى ويليام موريس. إنه مستجد للصدقات وكان يستخدم غرفتي مؤقتا إلى أن يجهز مقر عمله الجديد. لقد رحل بالأمس".

– "إلى أين؟"

– "إلى مكاتبه الجديدة. لقد أعطاني العنوان، ١٧ شارع الملك إدوارد قرب كنيسة القديس بولس".

– عندما وصلت إلى هذا العنوان، لم يكن أحد قد سمع عن السيد

ويليام موريس أو السيد دونكان روس".

- فسأل هولمز: "ماذا فعلت عندها؟"

- "لم أشأ أن أضيع هكذا مركز من دون أن أناضل، وسمعت أنك تحسن إسداء النصح للمساكين الذين هم بحاجة إليه، فأتيت إليك فورا".

- أجاب هولمز:

"حسنا فعلت. إن قضيتك مثيرة جدا للاهتمام ويسرني النظر فيها. أستنتج مما تقدم أن ثمة مسائل أخطر مما بدا أولا ربما تكون السبب في ما حصل".

- رد السيد جابيز ويلسون: "خطرة فعلا! يكفي أني خسرت الآن أربعة باوندات في الأسبوع".

- فلاحظ هولمز:

"في ما يخصك، أعتقد أن ثروتك زادت نحو ثلاثين باوندا إضافة إلى اتساع معرفتك في كل المواضيع التي تقع في خانة حرف "الألف". لم تخسر شيئا إذاً".

– "صحيح سيدي. لكني أريد أن أعرف ما حل بهم، ومن هم فعلا، وما الهدف من هذه المزحة – إن كانت مزحة. إلا أنها في الواقع مزحة كلفتهم اثنين وثلاثين باوندا".

– "سنحاول كشف هذه الخفايا كلها. لكن دعني أطرح عليك أولا سؤالا أو سؤالين، سيد ويلسون. منذ متى تعرف ذلك المعاون الذي لفت انتباهك إلى الإعلان؟"

– "قبل شهر من حينه".

– "كيف حصل ذلك؟"

– "أجاب على إعلان".

– "هل كان المرشح الوحيد؟"

– "لا، كان هناك عشرة آخرون تقريبا".

– "لم اخترته هو بالذات؟"

– "لأنه كان مستعد لمزاولة عمله فورا وبأجر زهيد".

– "هلا وصفت لي فينسنت سبولدينغ؟"

– "قصير القامة، قوي البنية، تعلو صلعته بقعة حمض".

– استوى هولمز على كرسيه وعلامات الحماسة بادية على وجهه.

– "هل لاحظت يوما أن أذنيه مثقوبتان لوضع الأقراط؟"

– "نعم، سيدي. قال لي إن الغجر فعلوا ذلك عندما كان فتيا".

– أجاب هولمز وهو يفكر مليا: "حسنا! ألا يزال معك؟"

– "طبعا. لقد غادرته للتو".

– "وهل يهتم بأعمالك في غيابك؟"

– "نعم، لا أشكو من شيء منه".

– "شكرا سيد ويلسون. أتمنى أن أتوصل إلى حل واضح حول الموضوع بعد يوم أو يومين. نحن اليوم السبت، ربما توصلت إلى استنتاج نهار الاثنين".

– عندما غادرنا الضيف، سألني هولمز: إذاً، واتسون، ما رأيك بكل هذا؟"

– أجبت بصراحة:

"لا شيء. إنها أكثر القضايا غموضا".

– فعلق هولمز قائلا:

"إن أغرب الأمور هي عادة الأقل غموضا في النهاية".

- سألت: "ماذا تنوي أن تفعل؟"

- أجاب: "أن أدخن. وأتمنى عليك ألا تكلمني قبل خمسين دقيقة".

- ثم تقوقع على الكرسي مغمضا عينيه وهو يدخن في غليونه المصنوع من الصلصال الأسود.

وسرعان ما تبين لى أنه غفا، حتى أن النعاس دب فيَّ أنا أيضا. وفجأة، انتفض هولمز من مكانه كمن اتخذ قرارا مهما.

- قال: هناك حفل في قاعة سانت جيمس بعد ظهر اليوم. أترافقني؟

هل تعتقد أن بإمكان مرضاك الانتظار لبضع ساعات؟"

- "لست منشغلا اليوم وعملي لا يستحوذ على كل وقتي".

- "اعتمر قبعتك إذاً ولنذهب".

- وصلنا بعد وقت قصير إلى ميدان ساكس كوبورغ، ساحة القصة الغريبة التي سمعناها هذا الصباح.

ولمحنا لوحة بنية اللون دون عليها اسم "جابيز ويلسون" بالأحرف البيضاء عند زاوية إحدى المنازل. وهي تشير إلى موقع ممارسة زبوننا

ذي الرأس الأحمر عمله. توقف شيرلوك هولمز أمامها وأمال رأسه يتأمل الطريق على امتدادها.

ثم اجتاز ببطء الشارع وعاد إلى الزاوية وهو يتمعن في المنازل، إلى أن عاد في النهاية إلى مقر المسترهن (مقرض المال لقاء رهن). تقدم نحو الباب وقرعه. ففتح شاب الباب فورا ودعاه إلى الدخول.

– "شكرا، أريد فقط أن أستعلم عن الطريق المؤدية إلى ستراند".

– أجاب المعاون:

"ثالث منعطف إلى اليمين ثم الرابع إلى اليسار". وأقفل الباب.

– لما عاد هولمز إليَّ، علق قائلا:

"إنه شاب ذكي. أعتقد أنه رابع أذكى رجل في لندن إن لم يكن الثالث".

– أجبت: "من الواضح أن لمعاون السيد ويلسون دورا في لغز عصبة الرؤوس الحمراء. أنا واثق من أنك تعمدت القدوم إلى هنا كي تراه".

– "ليس هو".

– "ماذا إذا؟"

– "ركبتي سرواله. عزيزي الدكتور، الوقت وقت المراقبة وليس وقت الكلام. إننا جاسوسان في أرض العدو. ولدينا بعض المعلومات عن ميدان ساكس – كوبورغ؛ فلنستكشف الآن الممرات التي يخفيها".

– انعطفنا عند الزاوية في ميدان ساكس – كوبورغ فوصلنا إلى طريق مختلفة كليا اختلاف وجه الصورة عن قفاها. كانت طريقا أساسية تخرج منها حركة وسط المدينة شمالا وغربا.

وقد اكتظت الطريق بدفق الحركة التجارية ذهابا وإيابا بالاتجاهين، وبدت قارعة الطريق سوداء لكثرة المشاة عليها.

– قال هولمز وهو واقف عند الزاوية يتأمل طول الخط: "دعني أرى جيدا. أريد أن أحفظ تسلسل المنازل هنا. من هواياتي أن أحفظ لندن عن ظهر قلب".

– بعدما غادرنا الحفل في سانت جيمس، قال:

"لا شك أنك تريد أن تعود إلى المنزل، دكتور".

– "صحيح".

– "أنا أيضا مشغول لبضع ساعات. فهذه القضية في ميدان

كوبورغ خطرة".

- "لم؟"

- "ثمة من يحضر لجريمة فظيعة. وكل شيء يدل على أننا سنصل في الوقت المناسب لإفشالها. لكن لأن اليوم هو السبت، فإن الأمور معقدة، سأحتاج إلى مساعدتك الليلة".

- "متى؟"

- "في العاشرة".

- "سأكون في شارع بيكر في تمام العاشرة".

- "ممتاز. أحذرك، دكتور، من احتمال وجود خطر بسيط، لذا أنصحك بوضع مسدسك الحربي في جيبك".

- ثم رفع يده محييا واختفى بين الحشود.

- لطالما انتابني شعور مزعج بحماقتي في التعامل مع شيرلوك هولمز. فقد سمعت في هذه الحالة كل ما سمعه ورأيت كل ما رآه؛ ومع ذلك، رأى هو حقيقة ما حصل وما سيحصل أيضا بينما لم أفطن أنا لشيء من كل هذا.

– وبدأت أتساءل عن طبيعة هذه الرحلة الليلة وضرورة حمل السلاح. إلى أين سنذهب ولم؟

لقد لمح هولمز إلى أن ذلك المعاون اللطيف الوجه رجل رائع، رجل قادر على تأدية لعبة معقدة.

حاولت عندها تبديد الغموض لكن من دون جدوى. فقررت انتظار الليلة علها تعطيني الجواب الشافي.

– غادرت منزلي في التاسعة والربع، ثم اجتزت الحديقة فشارع أوكسفورد وصولا إلى شارع بيكر. دخلت الغرفة فوجدت هولمز في خضم حديث مع رجلين، عرفت منهما الشرطي بيتر جونز؛ أما الثاني فرجل ذو وجه طويل نحيل وحزين.

– قال هولمز: "جيد! لقد اكتمل النصاب! واتسون، أعتقد أنك تعرف السيد جونز من اسكوتلند يارد؟

أعرفك على السيد ميريوثير الذي سيشاركنا مغامرتنا الليلة".

– لزم شيرلوك هولمز الصمت طيلة الطريق وجلس في المقعد الخلفي من العربة يترنم بالألحان التي سمعها بعد الظهر. مررنا في دهاليز

متواصلة من شوارع منارة بالغاز إلى أن وصلنا إلى شارع فارنغدون.

- لاحظ رفيقي:

"كدنا أن نصل. إن هذا الشخص ميريوثير هو مدير مصرف ومهتم شخصيا بهذه القضية. وأعتقد أن وجود جونز معنا مفيد أيضا. ها قد وصلنا. وهم في انتظارنا".

- كنا قد وصلنا إلى تقاطع الطرق الذي قصدناه صباحا. فتفرقت عرباتنا وتبعنا إرشادات شيرلوك هولمز عبر ممر ضيق ثم باب جانبي فتح أمامنا. تبعنا من هناك ممرا صغيرا أوصلنا إلى بوابة حديدية ضخمة، مشرعة أيضا وتقود إلى بوابة رائعة أخرى.

توقف السيد ميريوثير ليضيء قنديلا ثم قادنا عبر ممر يعبق برائحة الأرض بعد اجتياز باب ثالث، وصولا إلى قبو أو سرداب ضخم يعج بالعلب والصناديق.

- قال هولمز بصرامة متوجها إلى السيد ميريوثير: "أتمنى عليك التزام الهدوء قليلا. وأرجو منك الجلوس على أحد هذه الصناديق وعدم التدخل".

– أذعن السيد ميريوثير للطلب والتجهم باد على وجهه؛ بينما ركع هولمز على الأرض قائلا:

– "أمامنا ساعة على الأقل لأنهم لن يقدموا على أي عمل قبل خلود المسترهن إلى النوم. ولن يضيعوا بعدها دقيقة واحدة لأنهم كلما أنجزوا المهمة باكرا، تسنى لهم الوقت الكافي للهرب.

فنحن الآن، دكتور، كما ترى، في وسط المدينة في قبو فرع إحدى أبرز المصارف اللندنية. والسيد ميريوثير هو أعلى المدراء وسيشرح لك سبب اهتمام أخطر المجرمين في لندن بهذا القبو".

– همس المدير شارحا:

"إنه ذهبنا الفرنسي. لقد تلقينا عدة تحذيرات حول إمكانية تعرضنا للسرقة".

– "ذهبكم الفرنسي؟"

– "نعم. لقد عززنا مواردنا قبل أشهر واقترضنا لهذه الغاية ثلاثين ألف نابليون من البنك المركزي الفرنسي. ومن المعلوم أنه لم يتسن لنا بعد تفريغ المال من الصناديق فبقي في القبو هنا".

– قال هولمز:

"آن الأوان لنضع خطتنا. أتوقع أن تتحرك الأمور في غضون ساعة. علينا في هذه الأثناء، سيد ميريوثير، أن نخفي ضوء هذا القنديل".

– "ونقبع في الظلمة؟"

– "أخشى ذلك. لقد أصبحت تحضيرات العدو في مرحلة متقدمة جدا لا تسمح بالمخاطرة بالضوء. علينا أولا أن نختار مراكزنا. فهم رجال جسورون وحتى لو كنا في موقع أقوى منهم، قد يؤذوننا إن لم نحترس.

سأقف خلف هذا الصندوق، أما أنت فخلف هذه. حالما أسلط الضوء عليهم، اهجموا عليهم، ولا تتردد واتسون في الرد عليهم إذا أطلقوا النار".

– أخفى هولمز نور القنديل فغرقنا جميعا في ظلام دامس لم أشهد مثله من قبل.

– همس هولمز:

"أمامهم مخرج واحد عبر المنزل إلى ميدان ساكس – كوبورغ. آمل

أن تكون نفذت ما طلبته منك يا جونز؟"

- "وضعت مفتشا وضابطين أمام المدخل".

- "بهذا نكون قد أغلقنا كل المنافذ. لم يبق أمامنا سوى لزوم الصمت والانتظار".

- كم بدا الوقت طويلا!

لكن تبين لاحقا أنه لم يمض أكثر من ساعة وربع الساعة مع أنه بدا لي أن الليل قد انتهى وبدأ الفجر يبزغ. كانت أوصالي تؤلمني لشدة مكوثي مكاني خوفا من تغيير موقعي؛ وكانت أعصابي مشدودة جدا وسمعي مرهف لدرجة أني كنت أسمع تنفس زملائي البطيء. فجأة لمحت عيناي بريق ضوء.

- لم يكن في البداية سوى بريق متوهج على الأرضية الحجرية. ثم استطال إلى أن أصبح خطاً أصفر؛ ثم انفتحت فجوة ظهرت منها يد بيضاء أشبه بيد امرأة وسط منطقة النور الصغيرة.

وما لبثت أن اختفت بالسرعة التي ظهرت فيها وعادت الظلمة تلف المكان، ما خلا البريق المتوهج الذي بين شرخاً بين الأحجار.

– إلا أن اختفاءها كان مؤقتاً. إذ سرعان ما برز وجه صبياني واضح التقاسيم، وقف على جانب الهوة وخلفه زميل له رشيق وقصير القامة مثله، شاحب الوجه، أحمر الشعر.

– همس: "كل شيء على ما يرام. هل الإزميل والأكياس معك؟ حسنا، سكوت!

اقفز، أركي، اقفز، وأنا أتولى الباقي!"

– كان هولمز قد وثب من مكانه وأمسك الدخيل من عنقه؛ بينما قفز الآخر عبر الفجوة.

في تلك اللحظة، سطع الضوء على ماسورة مسدس، لكن هولمز سارع إلى الإمساك بمقبض الرجل موقعا المسدس على الأرض الحجرية.

– قال هولمز بلطف:

"لا جدوى من ذلك يا جون كليه. قضى عليك".

– فأجاب جون بنفس البرودة: "صحيح. أتصور أن زميلي بخير".

– قال هولمز:

"هناك ثلاثة رجال بانتظاره عند الباب".

- "بالفعل. يبدو لي أنك أحكمت تنظيم الأمور. أهنئك على ذلك".

- "وأنا أيضاً. ففكرتك حول الرؤوس الحمراء مبتكرة وفعالة جداً".

- قال جونز: "سترى زميلك مجدداً، لكن مكانك لحظة كي أكبلك".

- لاحظ سجيننا بينما الأصفاد تطبق على معصميه:

"أتوسل إليك ألا تلمسني بيديك الوسختين.

لعلك لا تعرف أن دماً ملكياً يسري في عروقي. هلا ناديتني أيضاً بعبارة "سيدي" و"من فضلك"؟

- أجاب جونز متعجباً وضاحكاً ضحكة نصف مكبوتة:

"حسناً. هلا تفضلت سيدي بارتقاء السلالم كي نجد عربة تقل سموك إلى مركز الشرطة؟"

- رد جونز كليه بهدوء: "هكذا أفضل".

- وبينما كنا نتبعهم إلى القبو، قال السيد ميريوثير:

"في الواقع، سيد هولمز، لا أعرف كيف يمكن المصرف أن يشكرك أو يعوض عليك. لا شك أنك اكتشفت وأحبطت بشكل ممتاز إحدى

أخطر محاولات السطو على المصارف التي عرفتها في حياتي".

- أجاب هولمز:

"لي حساب أصفيه مع السيد جون كليه. وقد تكبدت بعض المصاريف الطفيفة التي أتوقع أن يغطيها المصرف، وما خلا ذلك، مكافأتي الكبرى هو خوضي تجربة فريدة من نوعها لعدة أسباب، أهمها اكتسابي معلومات ثمينة عن عصبة ذوي الرؤوس الحمراء".

- جلست وهولمز ذات صباح نتناول الفطور في بيكر ستريت، فحدثني قائلاً:

أترى، واتسون، كان واضحاً منذ البدء أن الهدف الوحيد المعقول لإعلان العصبة الخرافي ونسخ الموسوعة هو تحييد ذلك المسترهن البسيط نسبياً عن الطريق لعدة ساعات في اليوم. وهي طريقة غريبة لكن محكمة لإدارة الأمور.

ولا شك أن عبقرية كليه هي التي خرجت بهذه الفكرة نظراً إلى لون شعر مستخدمه.

أما الأربعة باوندات فمجرد طعم لاجتذابه؛ وما الأربعة باوندات مقارنة مع الآلاف التي سيجنيانها لاحقاً؟!

وحالما سمعت أن المعاون قبل الوظيفة بنصف أجر، أدركت أن له حافزاً أمنياً لضبط الوضع".

- "لكن كيف عرفت ما هو الحافز تحديداً؟"

- "لو كانت ثمة امرأة في المنزل، لشككت في قضية من نوع آخر. لكن الحالة لم تكن كذلك.

والرجل يدبر عملاً متواضعاً وما من شيء في المنزل يتطلب هذا القدر من التحضيرات المحكمة والنفقات الإضافية. لابد إذاً أنه شيء ما خارج المنزل. لكن ماذا يا ترى؟

كل الأفكار كانت تقودني إلى حفر نفق يقود إلى بناية أخرى.

- "ولما قرعت الباب، رأيت على ركبتيه ما أردت رؤيته. لا شك أنك لاحظت مثلي كم كانتا مترهلتين ومجعدتين ومتسختين في إشارة واضحة إلى ساعات الحفر الطويلة.

بقي أن أعرف سبب الحفر. فاتجهت إلى زاوية الطريق أراقب ما حولها، وإذا بي أرى وسط المدينة ومصرف سابورين المتاخم لمقر عمل صاحبنا: فحل اللغز".

- سألت مستوضحا:

"وكيف حزرت توقيت العملية؟"

- "إن إقفال مقر العصبة دليل على أنهما لم يعودا يأبهان لوجود السيد جابيز ويلسون؛ وبعبارة أخرى فقد انتهيا من حفر النفق. ويوم السبت يناسبهما أكثر من غيره لأنه يعطيهما مهلة يومين للفرار. لكل هذه الأسباب توقعت قدومهما الليلة".

- قلت وقد أخذ مني الإعجاب كل مأخذ:

"ياله من تحليل ممتاز. إنها سلسلة أحداث طويلة تبدو فيها كل حلقة في مكانها الصحيح".

- أجاب: "لقد أبعد هذا عني شبح الملل".

- "كما أك محسن للجنس البشري أيضاً".

- هز كتفيه مجيباً:

"ربما كنت ذا فائدة ما. فالإنسان لا يوازي شيئاً - إنما عمله هو كل شيء، على حد قول غوستاف فلوبير وجورج ساند".

مغامرات شيرلوك هولمز

الرجل ذو الشفة المقلوبة

تأليف

آرثر كونان دويل

– كان إيزا ويتنيه مدمناً جداً على الأفيون. وقد اكتسب هذه العادة السيئة، كما عرفت، عندما كان في الكلية. وتبين له، كما لكثيرين من قبله، أن اكتساب العادة أسهل بكثير من التخلص منها. هكذا ظل عبداً للأفيون وموضع ازدراء وشفقة لأصدقائه وأقربائه.

– ذات ليلة في حزيران (يونيو) من العام ١٨٨٩م، قرع باب منزلي، فاستويت على كرسيي، وأوقفت زوجتي عملها اليدوي بالإبرة وبدت عليها خيبة الأمل.

– قالت:

"لابد أنه مريض! ستضطر إلى الخروج مجدداً".

– لم يرق لي الأمر أيضاً لأني عدت لتوي من نهار مضن. سمعنا بعدها الباب يفتح وبعض الكلمات المستعجلة ثم خطوات متسارعة على الأرضية. ثم انفتح باب الغرفة ودخلت امرأة متسترة بحجاب.

– "أعذروني على القدوم في هذه الساعة المتأخرة".

– ما إن قالت هذا حتى فقدت السيطرة على نفسها وارتمت بين

ذراعي زوجتي مطوقة عنقها، باكية على كتفها.

– "وقعت في ورطة كبيرة! أحتاج إلى المساعدة!"

– للحال رفعت زوجتي الحجاب، "إنها كيت ويتليه! فاجأتني يا كيت! لم أدرك أنك أنت عندما دخلت الغرفة".

– "كنت ضائعة وأتيت إليك حالاً".

– كالعادة، كل من يعاني من مشكلة يأتي إلى زوجتي كالطيور إلى المنارة.

– تابعت تقول:

"أحتاج أيضاً إلى نصيحة الدكتور ومساعدته. يتعلق الأمر بإيزا. خرج ولم يعد بعد منذ يومين. أنا قلقة عليه!"

– لم تكن هذه المرة الأولى التي تحدثنا فيها عن مشاكل زوجها. حاولنا أن نهدئ من روعها ونواسيها بكل ما أوتينا من كلام رقيق. هل تعرف أين زوجها؟

هل يمكننا إعادته إليها؟

– لم تتعد عربداته حتى الآن اليوم الواحد إذ لطالما عاد في المساء.

لكنه تغيب هذه المرة لأكثر من ثماني وأربعين ساعة. كانت واثقة من أنه على رصيف المرفأ. لكن ماذا عساها تفعل؟ كيف لامرأة شابة وخجولة مثلها أن تشق طريقها في هكذا مكان وتخرج زوجها من بين المتوحشين الذين يحيطون به؟

– هذه هي القضية باختصار وليس هناك سوى حل واحد للخروج من هذا المأزق. لقد اتسمت المرحلة الأولى من مغامرتي بالسهولة. وعندما وجدت الوكر الذي أبحث عنه، طلبت من عربتي التوقف وترجلت مجتازاً السلالم نزولاً، على ضوء مصباح زيت مترنح، إلى غرفة واطئة عابقة بدخان الأفيون الأسمر، اصطفت فيها المضاجع كمقدمة سفينة مهاجرة.

– كان يتراءى لك وسط الغشاوة طيف أجسام ممددة بوضعيات غريبة. معظمهم استلقوا صامتين لكن بعضهم الآخر كانوا يتمتمون لأنفسهم أو في ما بينهم بصوت خافت بطيء ورتيب.

– سارع إليَّ حالما دخلت خادم ماليزي حاملا غليونا والقليل من الأفيون.

– أجبته: "شكرا، لن أبقى طويلا. أبحث عن صديق لي هنا، السيد إيزا ويتليه؛ أود التكلم إليه".

– شعرت بحركة وتعجب على يميني. ولما نظرت جيدا عبر الغشاوة، رأيت ويتنيه شاحب الوجه منهكا وأشعث ينظر إليَّ.

– صرخ: "يا إلهي! هذا واتسون! كم الساعة يا واتسون؟"

– "قرابة الحادية عشرة".

– "في أي يوم نحن؟"

– "الجمعة الواقع في ١٩ حزيران (يونيو)".

– "رباه! اعتقدت أنه يوم الأربعاء. إنه فعلاً يوم الأربعاء".

– وأغرق وجهه بين ذراعيه وراح يبكي بصوت مرتفع.

– "قلت لك إنه يوم الجمعة. زوجتك تنتظرك منذ يومين. ألا تخجل من نفسك؟"

– "بلى. لكن ثمة التباس في الموضوع، فأنا أتيت منذ ساعات فقط ولم أدخن سوى ثلاثة غليونات أو أربعة – لم أعد أذكركم تحديداً. لكني سأعود معك إلى المنزل.

كيف أنسى كيت – صغيرتي كيت المسكينة. أعطني يدك! ألديك عربة؟"

– "نعم، إنها بالانتظار".

– لما مررت قرب الرجل الجالس عند الكانون، شعرت بأحدهم يشد ثيابي وصوت خافت يهمس لي: "اجتزني ثم التفت وانظر إليّ".

– سمعت هذه الكلمات بوضوح. استدرت فأدركت أنها صدرت بالتأكيد عن الرجل العجوز إلى جنبي. خطوت بضع خطوات ثم نظرت إلى الخلف.

كم سيطرت على نفسي كي أتفادى إطلاق صرخة تعجب. إذ إن الرجل أدار ظهره بحيث لا يراه أحد غيري. فتغيرت ملامحه وامتلأ جسمه وغابت تجاعيده واستعادت عيناه حيويتهما. وإذا به شيرلوك هولمز. أشار إليّ أن أقترب منه.

– همست له: "هولمز! بالله عليك ماذا تفعل هنا؟"

– "أخفت صوتك قدر ما تستطيع. فسمعي ممتاز. هلا تفضلت بالتخلص من صديقك الأسكتلندي لأني بحاجة إلى التحدث إليك قليلاً".

– من الصعب عادة رفض أي طلب لشيرلوك هولمز. لأنه يصوغ

طلباته بدقة وبراعة لافتتين. وقد شعرت بأنه عندما يستقل ويتنيه للعربة لنقله إلى منزله، فإن مهمتي ستنتهي.

وكل ما تمنيته عندها أن أشارك صديقي في إحدى مغامراته الفريدة التي تشكل خبزه اليومي. وما هي إلا دقائق معدودة حتى سددت ما توجب على ويتنيه وأوصلته إلى العربة التي أقلته تحت جناح الظلام إلى منزله.

وسرعان ما لاح من حجرة الأفيون وجه منهك فوجدتني أمشي في الشارع برفقة شيرلوك هولمز.

- "فأجاتني رؤيتك هنا".

- "ليس أكثر مني لرؤيتك أنت هنا".

- "أتيت بحثاً عن صديق لي".

- "وأنا عن عدوٍّ لي".

- "عدو؟"

- "باختصار، واتسون، إني الآن في خضم تحقيق مهم جداً وجئت إلى هنا أملاً مني في الحصول على الحل، كما فعلت من قبل. ثمة باب خفي خلف هذا البناء، لو أوتي له أن ينطق، لروى قصصاً غريبة عمن

مر عبره خلال الليالي الخالية من ضوء القمر".

– وضع سبابتيه بين أسنانه وصفر صفرة ثاقبة هي إشارة سرعان ما استجيب لها بصفرة مماثلة عن بعد، تلاها صوت عجلات وحوافر حصان.

– "سترافقني، واتسون، أليس كذلك؟"

– "إذا كنت تحتاج إليّ".

– "نحتاج دائماً إلى صديق موثوق به. غرفتي في سيدارز مجهزة بسريرين".

– "سيدارز؟"

– "نعم؛ إنه منزل السيد سانت كلير. أمكث هناك إلى أن أنهي التحقيق".

– "لكني لم أفهم شيئاً بعد".

– "صحيح. ستعرف كل شيء قريباً. هيا اصعد. حسنا جون، لن نحتاج إليك. هاك نصف كراون. وافني غداً في الحادية عشرة تقريباً".

– ضرب الحصان بسوطه فانطلقنا في دهليز متشابك من الشوارع المعتمة المقفرة، اتسعت تدريجياً إلى أن وصلنا إلى جسر واسع ذي

درابزين، والنهر المظلم يجري من تحتنا. لزم هولمز الصمت طوال الطريق وكأنه يفكر، بينما جلست أنا قربه في شوق لمعرفة المزيد عن بحثه الجديد. وبعد أن اجتزنا بضعة أميال وشارفنا على الوصول إلى أطراف حزام الفيلات، انتفض هولمز وسوى كتفيه ثم أشعل غليونه كمن رضي عما فعله وقال:

– "إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب يا واتسون. لكن يسرني أن يكون لي من أتحدث إليه. ماذا تراني سأقول الليلة لتلك المرأة العزيزة عندما تستقبلني عند الباب؟"

– "لابد أنك نسيت أني لا أعرف شيئاً عن الموضوع؟"

– "لدي ما يكفي من الوقت لأطلعك على الوقائع قبل أن نصل إلى لي".

– "تفضل".

– "قبل بضع سنوات، في أيار (مايو) من العام ١٨٨٤م تحديداً، أتى رجل يدعى نيفيل سانت كلير إلى لي. بدا ثرياً جداً فاشترى فيلا كبيرة وكون تدريجياً شبكة أصدقاء جدد في الجوار وتزوج العام ١٨٨٧م ابنة صانع جعة محلي ورزق منها بولدين. لم تكن له وظيفة معينة لكنه كان

يهتم بعدة شركات.

واعتاد أن يذهب إلى المدينة صباحاً على أن يعود في تمام الخامسة وأربع عشرة دقيقة كل مساء عبر شارع كانون. يبلغ عمر السيد سانت كلير الآن ٣٧ عاماً وليست له عادات مميزة، وهو زوج صالح وأب عطوف وجميع من يعرفونه يحبونه. كما أنه ما من شيء يدل على أنه كان يعاني من مشاكل مادية.

- "خرج السيد سانت كلير إلى المدينة نهار الإثنين الماضي أبكر من العادة ووعد أن يجلب معه لابنه علبة لعب. وصادف أن تلقت زوجته بعد رحيله بقليل برقية مفادها أن طرداً مهماً كانت بانتظاره وصل إلى مكاتب شركة أبردين للشحن في شارع فرسنو حيث وجدتني الليلة. تناولت السيدة سانت كلير غداءها وتوجهت إلى وسط المدينة.

ثم قصدت، بعد التبضع، مكاتب الشركة ووصلت في تمام الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة إلى شارع سواندام في طريق العودة إلى المحطة. أما زلت معي؟"

- "نعم، كل شيء واضح حتى الآن".

– "مشت السيدة سانت كلير ببطء وهي تبحث عن عربة تقلها. وهي كذلك، سمعت فجأة هتافاً أو صراخاً، وكم فوجئت برؤية زوجها ينظر إليها من أعلى.

وتسنى لها أن ترى وجهه بوضوح وآثار التوتر بادية عليه – وسرعان ما توارى فجأة عن أنظارها كما لو أن قوة خارقة شدته من الخلف. وقد لفت حسها الأنثوي أنه برغم ارتدائه معطفاً داكناً، لم يكن يلبس لا ياقة ولا ربطة عنق.

– "أدركت عندها أن مكروهاً أصابه، فنزلت السلم على عجل. والمنزل ليس إلا معقل الأفيون حيث وجدتني الليلة – وهرعت إلى الغرفة الأمامية حيث حاولت صعود السلم إلى الطابق الأول. إلا أنها اصطدمت هناك بذلك النذل لاسكار الذي حال دون ذلك ورمى بها في الشارع.

هناك التقت صدفة بمفتش في شارع فرسنو. فرافقها ورجلان آخران إلى الغرفة التي شاهدت فيها السيد سانت كلير. لكنهم لم يجدوا له أثراً، باستثناء اللعبة التي وعد بها ابنه.

– هذا الاكتشاف والارتباك الواضح على وجه ذلك البائس جعلا المفتش يتنبه إلى خطورة المسألة. فتحقق بعناية من جميع الغرف. ودلت كل النتائج على حصول جريمة مروعة. إذ بين التدقيق وجود آثار دم على حافة النافذة ونقاط أخرى مبعثرة على أرضية غرفة النوم الخشبية. ووجدت خلف ستار الغرفة الأمامية جميع ملابس السيد سانت كلير باستثناء معطفه. ويبدو أنه اختفى عبر النافذة بما أنها المخرج الوحيد من الغرفة.

– ماذا الآن عن الأشرار المتورطين مباشرة في هذه المسألة. للاسكار سوابق دنيئة متعددة. لكن بما أن السيدة سانت كلير ذكرت في روايتها أنه كان موجوداً عند أسفل السلم بعد ثوان معدودة على اختفاء زوجها، دافع عن نفسه بعدم علمه بما حصل. كما نفى معرفته من أين جاءت ثياب الرجل المفقود إلى هناك.

– أما المعوق البائس الذي يعيش في الطابق الثاني من معقل الأفيون والذي كان بالتأكيد آخر من شاهد نيفيل سانت كلير، فيدعى هوغ بون وهو متسول محترف. لاحظت بلا شك على مسافة قصيرة في شارع تريدنيدل على الجهة اليسرى وجود فجوة صغيرة في الجدار. هناك يجلس كل يوم. والكل يعرفه بسبب مظهره المميز. وقد علمنا أنه نزيل في مقر الأفيون وأنه آخر من رأى الرجل الذي نبحث عنه".

- سألت متعجباً:

"لكنه معوق! ماذا باستطاعة رجل مبتور اليد أن يفعل برجل في مقتبل العمر؟"

- "لا يخفى عنك نظراً إلى خبرتك الطبية أن ضعف أحد أعضاء الجسم، غالباً ما تقابله قوة خارقة في أعضاء أخرى".

- "أرجوك أكمل تلاوة الأحداث".

- "فقدت السيدة سانت كلير الوعي عندما رأت الدم على النافذة فأعادتها الشرطة إلى منزلها. أما المفتش بارتون الذي تولى التحقيق في القضية فعاين المكان بدقة لكن من دون جدوى.

وقد أخطأت الشرطة في عدم إلقاء القبض فوراً على بون، مما أتاح له بضع دقائق أعلم فيها لاسكار بما حصل، مع أنه قبض عليه بعد ذلك وأخضع للتفتيش لكن من دون العثور على أي إثبات يدينه بالجريمة.

حتى أنه نفى نفياً قاطعاً رؤيته السيد سانت كلير وأقسم أن وجود ثيابه في الغرفة لغز يحيره كما يحير الشرطة. أما قول السيدة سانت كلير إنها شاهدت زوجها عند النافذة، فلابد أنها تحلم أو تتخايل على حد

قوله.

– عثرت الشرطة بعد البحث عند الضفة الموحلة ما كانت تخشى أن تجده، أي معطف نيفيل سانت كلير لا جثته، بعدما تراجعت الموجة في البحيرة. وماذا وجدوا في جيبه برأيك؟"

– "لست أدري".

– "لا أعتقد أنك ستحرز. وجدوا في كل جيب من الجيوب جنيهات ونصف جنيهات. وليس من المستغرب عندها ألا يكون التيار قد جرف المعطف معه، إذ بقي مكانه نظراً إلى وزنه الثقيل، بينما ابتلع النهر الجثة العارية".

– "لكن كل ملابسه الأخرى وجدت في الغرفة كما فهمت. أي أن الجثة كانت مدثرة بالمعطف فقط؟"

– "لا، عزيزي. فلنفترض أن بون رمى بنيفيل سانت كلير عبر النافذة. ماذا يفعل بعدها؟

عليه التخلص من الثياب الفاضحة. ولم يكن أمامه متسع من الوقت. فسارع إلى مخبأ سري أخفى فيه ثمار تسكعه وملأ الجيوب بما

طالت يديه من نقود كي لا يطفو المعطف في النهر. ثم رماه وأراد فعل الشيء نفسه بالثياب الباقية لولا سماعه خطوات متسارعة في الطابق السفلي. وقلما استطاع إغلاق النافذة قبل وصول الشرطة".

- "منطقي جداً".

- "سنسلم بهذه الفرضية بانتظار الأفضل. تبقى عدة أسئلة عالقة، لم أتى نيفيل سانت كلير إلى معقل الأفيون، وماذا حل به، وأين هو الآن، وما علاقة هوغ بون باختفائه؟

أقسم أني لم أعمل بعد على قضية بدت بهذه السهولة للوهلة الأولى وتضمنت هذا القدر من الصعوبات".

- غاص شيرلوك هولمز في هذه التفاصيل المثيرة لمجريات الأحداث وهو يجول في ضواحي البلدة إلى أن اجتزنا قريتين نائيتين كانت الأنوار لا زالت تتلألأ عبر نوافذ بعض المنازل فيها.

- كسر زميلي الصمت قائلاً:

أترى هذا الضوء بين الأشجار؟ هذه سيدارز، وقرب هذا المصباح تجلس امرأة لا شك أن أذنيها المتنبهتين لاحظتا اقتراب حوافر حصاننا.

كم أكره مواجهتها يا واتسون وأنا لا أحمل إليها أي نبأ سار عن زوجها. ها قد وصلنا".

– توقف أمام فيلا كبيرة تحيط بها أراضٍ واسعة. وسارع صبي الإسطبل لاستلام الحصان بينما تبعت أنا هولمز عبر ممر مفروش بالحصى يفضي إلى المنزل.

وما أن دنونا من الباب حتى انفتح أمامنا وبدت امرأة شقراء قصيرة القامة. وقفت بعينين شرهتين كمن علق سؤال على شفتيها.

– سألت: "حسناً؟ هل من أخبار سارة؟"

– "كلا".

– "أخبار سيئة؟"

– "كلا".

– "الحمد لله. تفضلا. لابد أنكما تعبانان بعد هذا اليوم الطويل".

– "أعرفك على صديقي الدكتور واتسون. لقد كانت مساعدته قيمة في العديد من قضاياي وشاءت صدفة سعيدة أن أتعرف إليه وأشركه في تحقيقاتي".

– أجابت وقد شدت على يدي بحرارة: "تشرفت. اعذرني على أي سوء تدبير في المنزل نظراً إلى وقع الصدمة التي ألهتني عن كل شيء آخر".

– "لا مبرر للاعتذار، سيدتي".

– دخلنا غرفة الطعام المنورة فوجدنا حساء بارداً بانتظارنا على الطاولة. قالت:

"قل لي سيد شيرلوك هولمز، هل لي بسؤال أو سؤالين وأتمنى الحصول على إجابة صريحة؟"

– "طبعاً، تفضلي".

– "أتعتقد فعلاً أن نيفيل لا زال حياً؟"

– أحرج السؤال شيرلوك هولمز.

– فكررت السؤال:

"قل لي بصراحة!"

– ونظرت إليه بتمعن بينما أرخى جسمه في كرسي الخيزران.

– "بصراحة، سيدتي، لست أدري".

– "أتعتقده أنه ميت؟"

– "نعم".

– "مقتول؟"

– "ربما".

– "هلا شرحت لي إذاً سيد هولمز، من أين أتت هذه الرسالة اليوم؟"

– وقفت باسمة تحمل في يدها ورقة صغيرة. تناول هولمز الورقة بحماسة بالغة وفتحها على الطاولة، ثم استعان بالمصباح وراح يقرأها بتمعن. حتى أنا غادرت مقعدي وبدأت أقرأ بدوري من خلف كتفيه. كان المغلف متسخاً يحمل ختم غريفساند وتاريخ اليوم أو بالأحرى اليوم الفائت، بما أن الساعة دقت بعد منتصف الليل.

– "هذا ليس خط زوجك بالتأكيد".

– "لا، ليس خطه، لكن محتوى المغلف صحيح".

– "أعتقد أيضاً أن مرسل الرسالة سأل أولاً عن العنوان. فلننظر إلى الرسالة الآن! هنا المحتوى".

– "نعم، كانت هناك حلقة. حلقة ختمه".

– "أواثقة أنها يد زوجك؟"

– "إحدى يديه".

– "إحدى يديه؟"

– "عندما يكتب على عجل. هذا ليس خطه المعتاد لكني أعرفه جيداً".

– "لا تقلقي عزيزتي. سيكون كل شيء على ما يرام. لقد ارتكب خطأ فادح يتطلب تصحيحه بعض الوقت. كوني صبورة.

نيفيل

– "حررت بواسطة قلم رصاص على ورقة بحجم قطع الثمن ولا علامة في نسيج الورق. كما أرسلها عبر بريد غريفساند رجل متسخ الإبهام. والحاشية ممحية إن لم أكن مخطئاً من قبل رجل كان يمضغ تبغاً. وأنت مع ذلك واثقة أنه خط زوجك، سيدتي؟"

– "نعم. نيفيل كتب هذه الرسالة".

– "حسنا، إن الغيوم بدأت تنقشع سيدة سانت كلير مع أني لن أخاطر بعد بالقول إن الخطر قد زال كليا".

– "بالله عليك سيد هولمز، لا تقض على آمالي. أنا واثقة من أنه

بخير. فثمة تخاطر فظيع بيننا يجعلني أستشعر الخطر المحدق به فوراً".

- "هذه الرسالة أكبر برهان على ما تقولينه. لكن لو كان زوجك فعلاً على قيد الحياة ويقوى على كتابة رسالة، لم فضل التواري عنك؟ ألم يذكر شيئاً قبل أن يغادر نهار الإثنين؟"

- "كلا".

- "فاجأتك رؤيته في شارع سواندام؟"

- "كثيراً".

- "هل كانت النافذة مفتوحة؟"

- "نعم".

- "لم يصدر إلا صرخة مبهمة كما فهمت".

- "نعم".

- "ظننت أنه يطلب النجدة".

- "نعم. كان يشير بيديه".

- "ربما كانت صرخة تعجب عندما رآك، فرفع يديه".

- "ممكن".

- "وتعتقدين أن أحداً شده إلى الخلف؟"

- "لقد اختفى فجأة".

- "ربما تراجع هو إلى الخلف. هل رأيت أحداً غيره في الغرفة؟"

- "لا، لكن ذلك الرجل المربع اعترف أنه كان هناك ولاسكار عند أسفل السلم".

- "صحيح. كان زوجك يرتدي ثيابه المعتادة؟"

- "لكن من دون ياقته أو ربطة عنقه. رأيت عنقه عارياً".

- "هل ذكر أبداً شارع سواندام؟"

- "ولا مرة".

- "شكراً سيدة سانت كلير. أردت التحقق من هذه النقاط. سنتناول الحساء ثم نخلد إلى النوم لأن يوماً طويلاً ينتظرنا غداً".

- خصصت لنا غرفة نوم فسيحة ومريحة من سريرين. سرعان ما خلدت أنا إلى الفراش بعدما أنهكتني مغامرتي الليلية، أما شيرلوك هولمز، فكلما بقيت إحدى مشاكله عالقة، لم يكن يهدأ له بال لأيام لا

بل لأسابيع، يحلل ويراجع الوقائع ويتفحصها من كل وجهات النظر إلى أن يفهمها، أو يقتنع بأن المعلومات المتوفرة لديه غير كافية أيقظني هتاف مفاجئ، فرأيت شمس الصيف وقد تغلغلت أشعتها الأولى في الغرفة. كان شيرلوك هولمز لا زال يدخن غليونه، بحيث عبقت الغرفة بدخان التبغ.

– سأل: "هل صحوت يا واتسون؟"

– "نعم".

– "مستعد للرحلة الصباحية؟"

– "طبعاً".

– "ارتد ملابسك إذاً".

– بدا رجلاً مختلفاً عن مفكر الليلة الماضية. نظرت إلى ساعتي وأنا أرتدي ملابسي. كانت تثير إلى الرابعة وخمس وعشرين دقيقة. بالكاد انتهيت لما دخل هولمز يعلمني أن الصبي يسرج الحصان".

– قال وهو ينتعل حذاءه: "أود اختبار إحدى نظرياتي. أعتقد أني أملك مفتاح الحل".

- سألت باسماً:

"أين هو؟"

- أجاب:

"في الحمام". وتابع يقول عندما رأى أمارات التعجب ترتسم على وجهي: "أنا جاد. كنت هناك، وجدته فأخذته. هيا، سنتحقق إن كان المفتاح المناسب للقفل".

- هبطنا السلم بأقصى سرعتنا وخرجنا إلى شمس الصباح الساطعة وتوجهنا من هناك إلى لندن.

- قال هولمز:

"إنها قضية مميزة لعدة أسباب".

- بدأ أوائل الصاحين يستيقظون وينظرون نعاساً عبر النوافذ أثناء مرورنا في شوارع المدينة. كانت الشرطة تعرف جيداً شيرلوك هولمز في شارع بو. حياه الشرطيان عند الباب، بينما أمسك أحدهما رأس الحصان وقادنا الآخر إلى الداخل.

- سأل هولمز:

"من يناوب اليوم؟"

- "المفتش برادستريت، سيدي".

- "برادستريت، كيف الحال؟"

- تقدم نحونا عبر الرواق رجل طويل القامة قوي البنية.

- "أود التحدث إليك برادستريت لو سمحت".

- "طبعاً سيد هولمز. تفضل إلى مكتبي هنا".

- دخلنا غرفة صغيرة، جلس فيها المفتش إلى مكتبه.

- "كيف أساعدك سيد هولمز؟"

- "أتيت بحثاً عن المتسول بون، الذي اتهم بضلوعه في اختفاء السيد نيفيل سانت كلير".

- "نعم. لقد أحضر إلى هنا وأبقيناه لمزيد من التحقيقات".

- "صحيح، عرفت. أما زال هنا؟"

- "في زنزانته".

- "هل هو هادئ؟"

– "تماما. لكنه نذل وسخ".

– "وسخ؟"

– "نعم. بالكاد أجبرناه على غسل يديه، ووجهه أسود كسمكري".

– "أود رؤيته".

– "فعلا؟ لا بأس. تعاليا معي".

– قادنا المفتش عبر ممر ينتهي بباب مزلج ثم عبر سلم لولبي وصولا إلى ممر آخر أبيض اللون فيه سلسلة من الأبواب على كلا الجانبين.

– قال المفتش: "ثالث باب على اليمين".

– فتح بروية لوحة في أعلى الباب ونظر عبرها. ثم نظرنا بدورنا إلى الداخل. كان السجين مستلقيا ووجهه قبالتنا، مستغرقا في سبات عميق، يتنفس ببطء وعمق. كان متسخا جدا كما قال المتفش لكن القذارة التي غطت وجهه لم تكن لتخفي بشاعته المنفرة. إذ لاحظنا وجود ندبة قديمة تمتد من عينه حتى ذقنه، أدت بفعل انقباضها إلى قلب الشفة العلوية.

– قال المفتش: "إنه آية من الجمال، أليس كذلك؟"

– "يحتاج إلى حمام. فكرت في ذلك فجلبت معي العدة اللازمة".

– كدت لا أصدق عيني عندما فتح حقيبته وأخرج منها ليفة حمام كبيرة.

– ضحك المفتش قائلا: "إنك مضحك حقا".

– "هلا فتحت الباب بهدوء فنخرجه بعدها بمظهر لائق؟"

– أدخل المفتش المفتاح في القفل ودخلنا جميعنا الزنزانة بهدوء. استدار السجين واستغرق مجددا في سبات عميق. بلل هولمز الليفة وحف فيها مرتين وجه السجين بقوة.

– صرخ: "أعرفكم على السيد نيفيل سانت كلير، من لي، في مقاطعة كنت".

– لم أر أبدا في حياتي مشهدا كهذا! انقشع وجه الرجل كلحاء شجرة. فزالت الندبة البشعة والشفة المقلوبة التي أسبغت تلك الهيئة المنفرة على وجهه! وعندما لاحظ الرجل ما حل به، صرخ صرخة عالية وأخفى وجهه في وسادته.

– قال المفتش: "يا إلهي! إنه فعلا الرجل المفقود. تعرفت عليه من

خلال الصورة".

– استدار الرجل وقد بدا عليه استسلامه للأمر الواقع.

– "حسنا، أنا هو. ما ذنبي؟"

– "إني أعمل مع الشرطة منذ ٢٧ عاما لكن هذه القضية هي الأغرب على الإطلاق".

– "إذا كنت حقا السيد نيفيل سانت كلير، فمن الواضح أن أية جريمة لم ترتكب، وأني بالتالي موقوف بصورة غير مشروعة".

– أجاب هولمز:

"لم ترتكب أية جريمة لكن خطأ فادحا قد ارتكب. حري بك أن تثق أكثر بزوجتك".

– "ساعدني يا الله! لا أريد أن يخجل أولادي بوالدهم. يا إلهي! يا للعار! ماذا عساي أفعل الآن؟"

– جلس شيرلوك هولمز قربه على السرير وربت بلطف على كتفيه.

– "لو تركت للمحكمة حرية البت في القضية، من الصعب جدا ألا يفتضح أمرك. من جهة ثانية، إذا نجحت في إقناع الشرطة بأنك غير

مذنب، لا أرى من داع لنشر التفاصيل في الجرائد".

– "فليباركك الله!

أفضل التوقيف والحبس المؤبد وحتى الإعدام على فضح سري لعائلتي وأولادي. ستكون أول من يعرف قصتي.

– بدأت أعمل كصحافي في جريدة مسائية في لندن. وأراد محرر الصحيفة ذات يوم أن ينشر سلسلة مقالات عن التسول في المدينة، فتطوعت لإجراء التحقيق.

بدأت مغامرتي من هنا. كانت الطريقة الوحيدة للحصول على التفاصيل اللازمة لمقالاتي عبر لعب دور المتسول بنفسي. هكذا فعلت، وتسولت مدة سبع ساعات. وكم فوجئت مساء عندما أدركت أني جنيت ٢٦ شلنا وأربعة بنسات.

– كتبت مقالاتي ولم أعر الأمر انتباها إلى أن تأخرت عن سداد سند مستحق لأحد أصدقائي قدره ٢٥ جنيها. وبينما أنا أفكر في طريقة أؤمن بها المال، خطرت على بالي فكرة. فقررت التسول لعشرة أيام في وسط المدينة وأنا متخف كما في المرة السابقة. واستطعت في غضون

عشرة أيام أن أجني المبلغ اللازم وأسدد الدين.

– بدأ عندها صراع حاد بين عزة نفسي والمال؛ لكن هذا الأخير فاز في النهاية. فتركت مهنتي الصحافية وكنت أجلس يوما بعد يوم في زاويتي المألوفة أتسول.

لم يعرف أحد سري إلا رجل واحد هو لاسكار، صاحب معقل الأفيون في شارع سواندام حيث كنت أنزل وأخرج منه كل صباح كمتسول، وكل مساء كرجل محترم. كنت أدفع مبلغا محترما للاسكار كي أطمئن إلى كتمه سري.

– أدركت بعد وقت قصير أني أجني مبالغ وفيرة من المال. وكلما ازدادت ثروتي، ازداد طموحي أيضا؛ فاشتريت منزلا في الريف وتزوجت من دون أن يعرف أحد طبيعة عملي. حتى زوجتي العزيزة علمت أن لي مصالح في وسط المدينة لكن لا شيء تحديدا عنها.

– نهار الإثنين الماضي، كنت قد أنهيت عملي وبدأت أرتدي ثيابي في الغرفة العلوية في معقل الأفيون، عندما رأيت وأنا واقف عند النافذة زوجتي في الشارع تنظر إليَّ.

فأطلقت صرخة تعجب وغطيت وجهي بين يدي وهرعت إلى لاسكار أطلب منه منع أي كان من الصعود إلى فوق. وبالفعل، سمعت صوتها في الأسفل لكني اطمأنيت لأنها لن تتمكن من الصعود إليَّ. خلعت ملابسي بسرعة وارتديت ملابس المتسول وتنكرت بحيث يصعب حتى على زوجتي التعرف إليَّ. لكن ماذا لو فتشوا الغرفة ووجدوا ملابسي؟

فتحت النافذة وأعدت فتح الجرح الذي أصبت به صباحا في غرفة نومي. ثم تناولت معطفي وقد ملأت جيوبه بالنقود التي جنيتها ذلك النهار ورميته عبر النافذة حيث جرفه نهر التايمز.

كنت سأفعل نفس الشيء بالثياب الأخرى لولا سماعي هرولة على السلم. وتبين لي بعد دقائق أنهم لم يتعرفوا إليَّ على أني السيد نيفيل سانت كلير بل قاتله؛ فشعرت بالارتياح.

- علمت أن زوجتي ستقلق كثيرا عليَّ، فأخذت خاتمي وأعطيته للاسكار من دون أن يراني أحد، طالبا منه أن يرسله إلى زوجتي كي تطمئن".

- قال هولمز: "لكنه لم يصل إلا بالأمس".

– "يا إلهي! لابد أنها عاشت أسبوعا لا ينتسى".

– أوضح المفتش برالستريت:

"هذا طبيعي بما أن الشرطة كانت تراقب لاسكار، فصعب عليه إرسال الرسالة سرا. إذا كان للشرطة أن تكتم هذا الأمر، يجب أن يختفي هوغ بون".

– "أقسم بشرفي ألا أتسول بعد الآن".

– "حسنا، في هذه الحالة، لن تتخذ أي تدابير إضافية. لكن إذا ضبطناك مجددا، سيفتضح أمرك. أنا واثق، سيد هولمز، أننا ندين لك بالكثير لإيضاح هذه المسألة. ليتني أعرف كيف تتوصل إلى حل هذه الألغاز".

– أجاب صديقي:

"لقد حللت هذا اللغز بجلوسي على خمس وسادات وتدخين التبغ. أعتقد يا واتسون أننا لو انطلقنا الآن إلى شارع بيكر، سنصل في الوقت المحدد لتناول الفطور".

تمّت

مغامرات شيرلوك هولمز

الرجال الراقصون

تأليف

آرثر كونان دويل

كان هولمز جالسا في صمت مطبق منذ ساعات وظهره الممشوق النحيل محنى فوق وعاء كيميائي يخمر فيه محلولا ذا رائحة كريهة.

قال فجأة: «ألن تستثمر في السندات المالية في أفريقيا الجنوبية يا واتسون؟»

فاجأني سؤاله مع أني معتاد على قدراته الفائقة، لكن هذه المداخلة في أعماق أفكاري الخاصة حيث حبست أنفاسي.

سألته: «بالله عليك كيف عرفت هذا؟»

أسقط أنبوب التجارب في مكانه وراح يشرح لي كأستاذ يلقي محاضرة، «أترى يا عزيزي واتسون، ليس من الصعب الربط بين سلسلة أحداث متتالية، تقوم الواحدة منها على سابقتها. كذلك لم يصعب عليَّ بمجرد مراقبة الثلم بين سبابتك اليسرى وإبهامك أن أتأكد أنك لم تقرر استثمار رأسمالك الصغير في مناجم الذهب».

«ما علاقة هذا بذاك؟»

«لا علاقة للوهلة الأولى، لكني سأشرح لك تسلسل أفكاري:

١) رأيت القليل من الطبشور بين إصبعك الأيسر وإبهامك عندما عدت من النادي الليلة الماضية. ٢) أنت تضع الطبشور هناك عندما تلعب البلياردلتثبيت العصا. ٣) أنت لا تلعب أبدا البلياردإلا مع تورسون. ٤) قلت لي قبل أربعة أسابيع أنه سنحت فرصة لتورستون في ملكية في جنوب أفريقيا تنتهي مهلتها في غضون شهر، ويريدك أن تشاركه فيها. ٥) دفتر حساباتك موجودة في جاروري ولم تطلب المفتاح مني. ٦) مما يعني أنك لن تستثمر مالك في هذا المجال».

أجبت مذهولا: «بهذه البساطة!»

«نعم، لكل مشكلة حل بسيط متى تم تفسيرها. إليك الآن مشكلة لا تفسير لها. حاول بدورك يا عزيزي واتسون». وضع هولمز ورقة على الطاولة وعاد إلى تحاليله الكيميائية.

نظرت مدهوشا إلى الأشكال الغريبة على الورقة.

«إنها مجرد رسوم طفولية يا هولمز!»

«أنت تظن ذلك».

«ما هي إذا؟»

«هذا بالضبط ما يريد معرفته السيد هلتون كوبيت من ردلنع ثورب

مانور في نورفلك. أسمع الجرس يقرع، لا شك أنه هو».

وبالفعل سمعنا وقع خطوات ثابتة على السلم وما هي إلا لحظات حتى دخل رجل طويل القامة. صافحنا وهم بالجلوس عندما وقع نظره على الورقة ذات الرسوم الغريبة وقد تركت على الطاولة بعد معاينتها.

سأل: «إذاً يا سيد هولمز، ما رأيك بها؟ لقد أرسلت الورقة قبلي كي يتسنى لك الوقت لدراستها».

«من الواضح أنها أشكال غريبة، تبدو مجرد خربشات طفولية للوهلة الأولى. لم تعر كل هذا الاهتمام بشيء فظ كهذا؟»

«لست أنا من يعيرها اهتماما، سيد هولمز، بل زوجتي. إنها تخيفها حتى الموت. هي لا تقول شيئا لكني أرى الذعر في عينيها. لذا أريد توضيح الأمر».

رفع هولمز الورقة بحيث يديرها الضوء جيدا. كانت الأشكال

مر

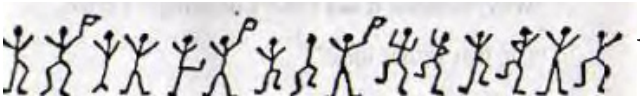

عاينها هولمز للحظات ثم طواها بعناية ووضعها في دفتر جيبه.

«ستكون هذه قضية مثيرة للاهتمام وفريدة من نوعها. لقد أعطيتني بعض التفاصيل في رسالتك سيد هيلتون كوبيت، هل لك بتكرارها أمام صديقي الدكتور واتسون؟»

أجاب الزائر وهو يتلاعب بيديه الضخمتين القويتين: «أنا لا أجيد الرواية. سأبدأ بزواجي العام الماضي، لكن أشير أولا إلى أني لست رجلا ثريا، وإلى أن عائلتي تعيش في ريدلنغ ثورب منذ خمسة قرون، وأنه ما من عائلة أعرق منها في مقاطعة نورفلك. أتيت السنة الماضية إلى لندن والتقيت بشابة أمريكية تدعى إلسي بتريك، أصبحنا أصدقاء وسرعان ما تحولت الصداقة إلى حب، تزوجنا في مكتب الزواج وعدنا معا إلى نورفلك كزوجين. لا شك أنك تعتبر هذا التصريف جنونيا يا سيد هولمز، أن يتزوج رجل من عائلة عريقة بشابة على هذا النحو من دون أن يعرف شيئا عن ماضيها أو عن عائلتها؛ لكن يكفي أن تراها لتفهم سبب تصرفي».

«قالت لي: «لن آتي أبدا على ذكر ماضي لأنه يؤلمني كثيرا. إذاً تزوجني يا هلتون، إنما ستتزوج امرأة ليس عندها ما تخجل به، لكن

عدني ألا تفتح لي دفاتر الماضي. إذا تعذر عليك تقبل هذه الشروط الصعبة، عد إلى نورفلك ودعني أعود إلى حياتي الهادئة قبل مجيئك. قالت هذا قبل يوم واحد من زفافنا. فأكدت لها رغبتي في الزواج منها تحت الشروط التي وضعتها والتي احترمتها بالكامل.

«مضت سنة على زواجنا، سنة من السعادة إلى أن ظهرت أولى بوادر المشاكل قبل شهر في حزيران (يونيو). فقد تلقت زوجتي رسالة من أمريكا، واختفت الحياة من وجهها ورمت الرسالة في النار. منذ ذلك الحين والخوف لا يفارقها وكأنها تنتظر أو تترقب شيئا ما. ولا يمكنني أن أفعل شيئا ما لم تفاتحني هي بالموضوع.

«قبل أسبوع تقريبا، نهار الثلاثاء تحديدا، وجدت على عتبة النافذة عددا من الأشكال الراقصة كهذه على الورقة رسمت بالطبشور خلال الليل. فمحوتها ولم آت على ذكر هذا لزوجتي إلا لاحقا. فوجئت بأنها أخذت المسألة على محمل الجد. وبالأمس وجدت هذه الورقة في الحديقة. فأريتها لألسي فانقلبت منذ ذلك الحين رأسا على عقب وأصبحت حالمة شبه مذهولة والرعب باد أبدا في عينيها. كتبت عندها إليك سيد هولمز وأرسلت الورقة إليك لأن الشرطة كانت لتهزأ بي لو

التجأت إليها. آمل أن ترشدني إلى الحل. صحيح أني لست ثريا لكني أبذل كل ما معي إذا تبين أن زوجتي الحبيبة في خطر».

أصغى هولمز بانتباه بالغ إلى روايته وجلس بعدها في صمت مطبق.

قال أخيرا: «ألا تعتقد يا سيد كوبيت أنه يستحسن أن تفاتح زوجتك مباشرة بالموضوع وأن تطلب منها البوح بسرها لك؟»

هز هلتون كوبيت رأسه مجيبا: «وعد الحر دين يا سيد هولمز».

«سأساعدك إذاً من كل قلبي. قل لي أولا، هل لاحظت وجود أي غرباء في الجوار؟»

«لا».

«من الواضح أن لهذه الرموز معنى ما. إذا كانت اعتباطية، لن ننجح في فكها. أما إذا كانت متعمدة، فسننجح في ذلك. لكن هذا النموذج مختصر ولا يفيدني كثيرا. كما أن المعلومات التي أعطيتني إياها مبهمة ولا تشكل أساسا لأي تحقيق. لذا أقترح عليك أن تعود إلى نورفلك وتراقب الأمور بحذر وأن تعد نسخا دقيقة عن أية رسوم جديدة قد تظهر».

استغرق شيرلوك هولمز في أفكاره بعد هذه المقابلة. ورأيته عدة مرات في الأيام التالية يتناول الورقة من دفتره ويدقق فيها بتمعن. لكنه لم يذكر الموضوع إلا بعد ظهر أحد الأيام بعد نحو أسبوعين. كنت أهم بالمغادرة عندما ناداني.

«يستحسن أن تبقى هنا يا واتسون».

«لماذا؟»

«لأني تلقيت برقية من هلتون كوبيت هذا الصباح وقد يصل في أي وقت. ويبدو من برقيته أن ثمة تطورات هامة».

لم تنتظر طويلا قبل أن يصل كوبيت. بدا قلقا ومحبطا.

قال: «إن الأمر يوتر أعصابي. يكفي أن تشعر أنك محاط بشخص خفي ومجهول يخبئ لك نوايا خفية كي تشعر بالسوء؛ تصور شعورك عندما يقتل ذلك زوجتك على نار خفيفة. إنها تنهار تحت ناظري!»

«هل قالت أي شيء حتى الآن؟»

«لا، سيد هولمز. مع أنها شاءت البوح بشيء أحيانا. حدثتني عن عائلتي العريقة وسمعتنا في المقاطعة وكرامتنا وشرفنا، ولطالما اعتقدت

أنها ستقودني إلى نقطة محددة، إلا أنها لم تقدني في النهاية إلا إلى حيث انطلقت».

«هل اكتشفت أي شيء بنفسك؟»

«نعم. لدي عدد من أشكال الرجال الراقصين الجديدة والأهم أني رأيت من يرسمها».

«ماذا؟ الرجل الذي يرسمها؟»

«نعم، رأيته يرسمها، سأروي لك كل شيء بالتفصيل. بعدما عدت إلى دياري، رأيت في الصباح التالي مجموعة جديدة من رسوم الرجال الراقصين. إليك نسخة مطابقة عنها».

وفتح ورقة ووضعها على الطاولة:

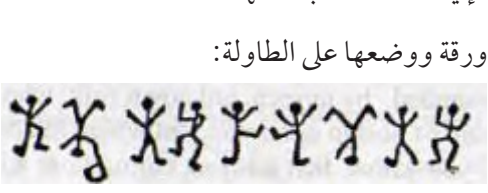

«ممتاز! ممتاز! تابع من فضلك».

«محوت العلامات بعدما نسخت الرسوم. لكن بعد يومين، ظهرت مجددا على النحو التالي:

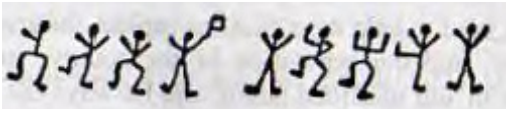

فرك هولمز يديه وقد بدا الامتنان على وجهه.

«ها هي المعطيات تتراكم لدينا».

«بعد ثلاثة أيام، وجدت هذه الرسالة. هي، كما ترى، كالرسالة الأخيرة. فقررت عندها أن أترقب وأنتظر لأرى ما سيحصل. أخذت مسدسي وجلست في مكتبي المشرف على الباحة الخارجية والحديقة. في الثانية فجرا تقريبا، بينما كنت جالسا قرب النافذة، وكل شيء في الخارج غارق في الظلمة ما خلا ضوء القمر، سمعت وقع خطوات خلفي وإذا بها زوجتي».

حثتني على العودة إلى فراشي. فقلت لها صراحة إني أريد أن أرى من يهزأ بنا بألاعيبه هذه. أجابت أنها مجرد مزحة تافهة لا يجدر بي أن أعيرها أية أهمية.

«وفجأة، بينما هي تتكلم هكذا، رأيت وجهها يزداد شحوبا وشعرت بقبضتها تشد على كتفي. وشاهدنا طيفا يتحرك ثم أحدهم يزحف. تناولت مسدسي بسرعة وهرعت خارجا لكن زوجتي

طوقتني بذراعيها وأمسكتني بكل قوتها. ولما فتحت الباب أخيرا ووصلت إلى المنزل، كان الطيف الغريب قد اختفى. إلا أنه ترك أثرا قبل مغادرته، إذ وجدت على الباب نفس تسلسل الرجال الراقصين الذي ظهر مرتين حتى الآن والذي نسخته على الورقة. لا شك أنه لازم المكان طوال الوقت لأني عاينت الباب مجددا في الصباح ووجدت رسوما أخرى تحت الرسوم السابقة».

«هل أحضرتها معك؟»

«نعم؛ إنها موجزة جدا لكني نسختها لك؛ تفضل».

سحب ورقة رسم عليها ما يلي:

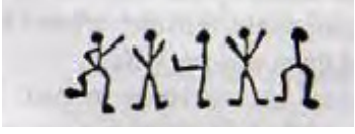

سأل هولمز والإثارة بادية في عينيه: «قل لي، هل أضيفت هذه إلى الرسوم السابقة أو كانت منفصلة تماما؟»

«كانت في مكان مختلف تماما على الباب».

«ممتاز! تابع، سيد هلتون كوبيت، من فضلك روايتك المثيرة».

«هذا كل ما لدى سيد هولمز. باستثناء أني تشاجرت مع زوجتي تلك الليلة لأنها ردعتني عن التحرك. قالت إنها خافت أن أؤذي نفسي. واعتقدت لبرهة أنها إنما خافت في الواقع عليه هو. لكن نبرة صوتها يا سيد هولمز ونظرتها لا تتركان مجالا للشك».

«سأزورك قريبا لأحاول كشف ملابسات القضية».

حافظ شيرلوك هولمز على هدوئه المهني المعتاد. إلى أن رحل الزائر مع أني لاحظت أنه، كعادته، متحمس جدا لما سمعه. هرع إلى الطاولة ووضع عليها الورقات التي تحمل الرسوم واستغرق في عملية فكرية معقدة.

ظل هكذا ساعتين يملأ ورقة تلو الأخرى رسوما وأحرفا، لدرجة أنه نسي حتى وجودي في الغرفة. كان يحرز أحيانا بعض التقدم فيصفر ويغني؛ ويبدو أحيانا أخرى مذهولا فيجلس عاقد الحاجبين، سارح الفكر. نهض أخيرا من مكانه مطلقا صرخة امتنان. ثم كتب برقية طويلة، وقال لي:

«يمكننا التوجه إلى النورمندي غدا على ما أظن لنطلع صديقنا على

معلومات دقيقة عن سر إزعاجه».

لا أخفي عليكم مدى شوقي لسماع تلك الأنباء، لكني أدركت أن هولمز يود الإفصاح عنها عندما يرى ذلك مناسبا وبطريقته الخاصة؛ فانتظرت ذلك الموعد بفارغ الصبر.

لكن الجواب على البرقية تأخر. ومساء اليوم الثاني بعد إرسالها، وصلتنا رسالة من هلتون كوبيت يقول فيها إن كل شيء على ما يرام باستثناء ظهور رسم طويل صباحا. وضمن الرسالة نسخة عنه كالتالي:

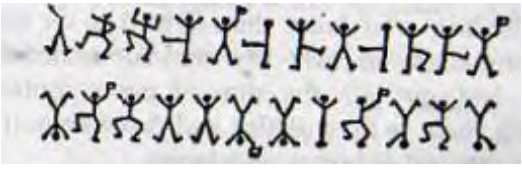

«آن الأوان لنتحرك من قطار الليلة إلى شمال والشام؟»

نظرت إلى جدول الرحلات فرأيت أن آخر قطار انطلق لتوه.

«سنتناول الفطور باكرا إذاً ونستقل أول قطار. لا بد من ذهابنا إلى هناك بأقصى سرعة».

لما وصلنا إلى شمال والشام وأفصحنا عن وجهتنا، سارع مدير

المحطة إلينا قائلا: «أعتقد أنكما التحريان من لندن؟»

امتعض هولمز قليلا وسأل: «لم تقول هذا؟»

«لأن المفتش مارتن أتى لتوه. أو لعلكما جراحان. هي لم تمت، هكذا تفيد آخر الأنباء. ربما تصلان في الوقت المناسب لإنقاذها».

زادت هذه الكلمات من مخاوف هولمز.

«إننا ذاهبان إلى منزل ريدلنغ ثورب، لكننا لسنا على علم بما حصل».

أجاب مدير المحطة: «أمر فظيع. أصيبا كلاهما، السيد هلتون كوبيت وزوجته. أطلقت النار عليه ثم على نفسها، على حد قول الخدم. قتل هو فورا بينما زوجته في حالة خطرة. يا إلهي! إحدى أعرق العائلات في مقاطعة نورفلك وأشرفها على الإطلاق».

سارع هولمز من دون الإجابة إلى أول عربة صادفها ولزم الصمت على طول الأميال السبعة التي استغرقتها الرحلة. وقد لاحظت اضطرابه منذ أن غادرنا لندن معاينته الصحف الصباحية بقلق شديد.

قال أخيرا: «هذا منزل ريدلنغ ثورب».

كان رجل أنيق قصير القامة قد ترجل لتوه من عربة مكشوفة. عرفنا

عن نفسه بأنه المفتش مارتن وقد فوجئ كثيرا عند سماع اسم صديقي.

«لكن الجريمة اقترفت في الثالثة من فجر اليوم يا سيد هولمز! كيف بلغك النبأ إلى لندن ووصلت إلى هنا بهذه السرعة؟»

«توقعت حصولها وأتيت أملا مني بمنعها».

«لا شك أنك تملك براهين نجهلها نحن لأنه يقال إنهما زوجان متحدان كثيرا».

«لا أملك سوى برهان الرجال الراقصين. سأشرح لك الأمر لاحقا. لكن بما أني تأخرت للحؤول دون وقوع الجريمة، سأستعمل هذه البراهين لإحقاق الحق. هل تشركني في تحقيقك أم تفضل أن أعمل على انفراد؟»

أجاب المفتش بحماس: «يشرفني أن نعمل معا سيد هولمز».

كان الجراح المحلي وهو رجل عجوز أبيض الشعر قد خرج لتوه من غرفة السيدة كوبيت وأفاد إن إصابتها خطرة لكن ليست بالضرورة مميتة. وردا على سؤال لمعرفة ما إذا أطلق أحدهم النار عليها أم أنها هي التي أطلقت النار على نفسها، لم يعط الجراح أي جواب مؤكد.

«لقد أصاب الطلق السيد هلتون كوبيت في قلبه. لعله أطلق النار عليها ثم على نفسه أو أنها هي المجرمة بما أن المسدس وجد في منتصف الطريق بين الاثنين».

سأل هولمز: «هل تم تحريك الجثة؟»

«لم تحرك شيئا إلا السيدة. لم يكن يعقل تركها تتخبط في دمائها على الأرض».

«كم مضى وقت على وجودك هنا، دكتور؟»

«منذ الرابعة».

«هل من أحد آخر؟»

«نعم، الشرطي».

«ألست أي شيء؟»

«كلا».

«أحسنت فعلا. من استدعاك؟»

«الخادمة ساندیرز».

«هي من أعطت الإنذار؟»

«هي والطاهية السيدة كينغ».

«أين هما الآن؟»

«في المطبخ على ما أظن».

«من الأفضل أن نستمع إلى روايتهما».

كانت روايتهما واضحة جدا. لقد استيقظتا من نومهما على دوي انفجار تلاه دوي ثان. وجدتا باب المكتب مفتوحا وشمعة مضاءة على الطاولة. وكان سيدهما ممددا على وجهه في وسط الغرفة وقد فارق الحياة. أما زوجته، فرابضة قرب النافذة متكئة برأسها على الحائط. وكانت إصابتها بالغة والدم يغطي إحدى جهتي وجهها. وأكدتا أن النافذة كانت موصدة من الداخل بإحكام. ولم يتشاجر الزوج والزوجة على حد علمهما.

وردا على سؤال هولمز، أكدتا أنهما شمتا رائحة بارود منذ أن خرجتا من غرفتيهما في الطابق العلوي. لفت هولمز عندها: «أعتقد أنه علينا الآن معاينة الغرفة».

أول ما استرعى انتباهنا في الغرفة جثة المسكين على الأرض. ويدل

ثوبه المبعثر أنه نهض على عجل من نومه، وقد أطلقت الرصاصة عليه من الأمام واستقرت في داخله بعدما أصابت قلبه. لا شك أنه توفي في اللحظة ذاتها من دون معاناة. ولم نجد آثار بارود لا على ثياب نومه ولا على يديه. وأشار الجراح إلى وجود بقع على وجه السيدة لكن ليس على يديها.

«أعتقد يا دكتور أنك استخرجت الرصاصة التي أصابت السيدة؟»

«نحتاج إلى عملية جراحية دقيقة لاستخراجها. لكن بقي أربع رصاصات في المسدس».

«ربما استطعت إذًا أن تفيدني عن الرصاصة التي أصابت حافة النافذة؟»

والتفت فجأة مشيرا بإصبعه النحيف الطويل إلى ثقب في أسفل حافة النافذة على بعد إنش واحد تقريبا من الأسفل.

صرخ المفتش: «بالله عليك! كيف رأيته؟»

«بحثت عنه».

أجاب الطبيب: «ممتاز! لا شك أنك على حق سيدي. أي أن ثمة طلقا ناريا ثالثا وبالتالي شخصا ثالثا في الغرفة. لكن من يا ترى، وكيف هرب؟»

أجاب هولمز: «هذا بالضبط ما تحاول معرفته. أتذكر يا حضرة المفتش مارتن عندما قالت الخادمتان أنهما شمتا عندما خرجتا من غرفتيهما رائحة بارود؟»

«نعم، لكن ما علاقة هذا بالموضوع؟»

«هذا يعني أن النافذة والباب فتحا عند إطلاق النار وإلا لما انتشر دخان البارود بهذه السرعة في المنزل. لكنهما لم يفتحا إلا لوقت قصير».

«كيف تثبت ذلك؟»

«لم تذب الشمعة. فاستنتجت أن شخصا ثالثا كان موجودا خارج الفتحة وأطلق النار عبرها».

«لكن النافذة مقفلة وموصدة الآن؟»

«كانت ردة فعل السيدة الأولى إغلاق النافذة وإيصادها. لكن، ما هذا هنا؟»

كانت حقيبة يد نسائية موضوعة على الطاولة.

أعطى هولمز الحقيبة ومحتوياتها للمفتش قائلا له: «يجب الاحتفاظ بها لأنها ستصلح في المحاكمة. علينا الآن كشف ملابسات الرصاصة

الثالثة التي من الواضح أنها انطلقت من داخل الغرفة. أود مقابلة السيدة كينغ مجددا... قلت يا سيدة كينج إن دويا قويا أيقظك من نومك. أتعنين أنه بدا لك أعلى من الدوي الثاني؟»

«الواقع، سيدي، أنه أيقظني من نومي، ومن الصعب أن أعرف تحديدا لكنه بدا لي قويا جدا».

«ألا تعتقدين أنه ربما كان دوي طلقين ناريين في آن؟»

«لست واثقة، سيدي».

«هلا رافقتموني الآن لنرى ما يمكن استنتاجه من معاينة الحديقة؟»

كانت الأرض مكسوة ببساط من الأزهار حتى نافذة المكتب ورحنا نعاينه جميعا بعناية بالغة. ثم انحنى هولمز مطلقا صرخة امتنان وتناول أسطوانة نحاسية صغيرة.

«كما تصورت. المسدس مزود بقاذف وهذه الخرطوشة الثالثة، أعتقد يا حضرة المفتش مارتن أن القضية قد انتهت».

بدا التعجب واضحا على وجه المفتش حيال التقدم الكبير والسريع في تحريات هولمز.

سأله: «بمن تشك؟»

«سأخوض في هذا الموضوع لاحقا. هناك عدة نقاط في هذه المشكلة لم أستطع شرحها لكم بعد».

«كما تشاء يا سيد هولمز طالما أننا سنعثر على المذنب في النهاية».

«إني أمسك الآن بخيوط القضية. وحتى لو لم تستعد السيدة وعيها، بإمكاننا إعادة رسم مجريات أحداث الليلة الماضية وإحقاق الحق في النهاية. لكن هل من نزل في الجوار اسمه «نزل إلردج»؟»

سئلت الخادمتان لكنهما لم تسمعا بمثل هذا الاسم. لكن فتى الإسطبل تذكر أن مزارعا بهذا الاسم يعيش على بعد أميال شرق روستون.

«هل هي مزرعة معزولة؟»

«معزولة جدا، سيدي».

«لعلهم لم يسمعوا هناك بما حصل هنا الليلة؟»

«على الأرجح لا، سيدي».

أخرج من جيبه أوراق الراقصين. ثم أخذ يعمل عليها لبعض الوقت على طاولة المكتب. ناول الفتى في النهاية رسالة موجزة طلب

منها تسليمها إلى الشخص المعني وبالأخص ألا يجيب على أي سؤال كان. نظرت إلى خارج المغلف وقد كتب عليه إلى السيد أبي سلاني، مزرعة الردج، روستون الشرقية، نورفلك.

أردف هولمز: «أعتقد يا حضرة المفتش أن عليك طلب مرافقة عسكرية لأنه، إذا صحت حساباتي، ستصطحب معك إلى السجن شخصا خطرا جدا».

كان الطبيب قد انصرف إلى مرضاه فبقيت أنا والمفتش.

سحب هولمز كرسيه إلى قرب الطاولة ووضع أمامه مختلف الأوراق التي في حوزته والتي رسم عليها الراقصون. وقال: «ستمضيان ساعة مشوقة جدا».

«لدي هنا رسوم مميزة ومضحكة لولا أنها قادت إلى هذه المأساة الرهيبة. أنا أعرف جيدا شتى أشكال الكتابات السرية، لكني أعترف أني أرى هذه للمرة الأولى. من الواضح أن من اخترع هذا النظام أراد إخفاء الرسالة التي تمثلها هذه الأشكال وجعل من يراها يظن أنها مجرد رسوم طفولية.

«لكني ما أن اكتشفت أن الرسوم ترمز إلى أحرف وبعدما طبقت عليها القواعد العامة التي تنطبق على كل أشكال الكتابات السرية، حصلت على الحل، كانت أول رسالة قصيرة جدا بحيث تعذر عليَّ أن أذهب بعيدا، باستثناء كون الرمز يدل على الحرف «E". فهذا الحرف، كما تعلمان، هو الأكثر شيوعا في الأبجدية الإنجليزية. صحيح أن الرمز كان يحمل راية في بعض الأحيان ولا يحملها في حالات أخرى، لكن هذا يعني على الأرجح، بالنظر إلى توزيعها، أنها تشير إلى نهاية الكلمة. احتفظت بهذه الفرضية على اعتبار أن الرمز يدل على الحرف «E".

"في لقائي الثاني مع السيد هلتون كربيت، سلمني هذا الأخير جملتين قصيرتين إضافيتين ورسالة بدت وكأنها كلمة واحدة نظرا إلى غياب الرايات فيها. إليكما الرموز. في الكلمة الواحدة، تبين لي أن الحرف "E" يحل في المرتبتين الثانية والرابعة من كلمة مؤلفة من خمسة أحرف. قد تكون الكلمة "Sever" (يفصل) أو "lever" (رافعة) أو "never" (أبدا). لا شك أن الكلمة الأخيرة هي المرجحة كجواب على رسالة خاصة وأن كل شيء يدل على أنها رسالة موجهة من السيدة. سلمت إذًا بأن الرسوم تدل على الأحرف «N"

و"V" و"R" على التوالي.

"وخطر ببالي أن هذه النداءات لو أتت، كما توقعت، من شخص كانت تربطه علاقة حميمة بالسيدة في ماضيها، فإن هذه السلسلة التي تتضمن حرف "E" بين ثلاثة أحرف قد تعني اسمها "ELSIE" (إلسي). وتبين لي بعد التدقيق أنها ختمت ثلاث مرات الرسالة فلا شك أنه نداء موجه إلى "إلسي". فحصلت على الأحرف "L" و"S" و"I". لكن ما معنى هذا؟ هناك أربعة أحرف فقط في الكلمة التي سبقت "إلسي" وهي تنتهي بحرف "E". لا شك أنها كلمة "COME" (تعالي). أضفت بالتالي أحرف "C" و"O" و"M" وبات بإمكاني فك رموز الرسالة الأولى. فحصلت على ما يلي:

. M . ERE. . ESL . NE .

الحرف الأول هو طبعا "A" ويبرز حرف "H" في الكلمة الثانية. فتصبح الرسالة:

. AM HERE A . E SLANE

ونحصل عند ملء الفراغات على ما يلي:

AM HERE ABE SLANEY

أصبح لدي بعدها ما يكفي من الأحرف للانتقال إلى الرسالة الثانية:

. A . ELRI . ES

لا يصلح هنا سوى حرفي "T" و"G" على اعتبار أنه اسم منزل أو نزل يوجد فيه كاتب الرسالة".

أصغيت والمفتش مارتن باهتمام بالغ إلى رواية صديقي الكاملة والواضحة حول كيفية توصله إلى هذه النتيجة وتخطيه كل هذه الصعاب.

سأل المفتش: "ماذا فعلت بعدها؟"

"راهنت على أن أبي سلانلي أمريكي الجنسية بما أن الرسالة الواردة من أمريكا كانت نقطة انطلاق المشاكل. وراهنت أيضا على وجود جريمة سرية في المسألة. فأبرقت إلى صديقي ولسون هارغريف في مكتب الشرطة في نيويورك أسأله هل سمع بأبي سلائلي. وكان جوابه: "أخطر المجرمين في شيكاغو". وفي الليلة نفسها وصلتني آخر رسالة

من هلتون كوبيت كتبها سلائلي على النحو الآتي:

. ELSIE . RE. ARE TO MEET THY GO

اكتملت الرسالة بإضافة حرفي "P" و"D" وأدركت أن النذل انتقل من الترهيب إلى الوعيد وأنه لن يتردد في تنفيذ تهديداته. فأتيت فورا إلى نورفلك مع صديقي وزميلي الدكتور واتسون لكننا للأسف وصلنا متأخرين".

"لكن لو كان أبي سلائلي في إلردج هو فعلا القاتل ولو استطاع الهرب بينما أنا جالس هنا، سأعاني حتما من متاعب".

"لا داع للقلق. لن يحاول الهرب".

"كيف عرفت هذا؟"

"إن هروبه أكبر إثبات على إدانته. كما أني طلبت منه الحضور إلى هنا".

بالفعل، رأينا رجلا يعبر الممر المؤدي إلى الباب. كان رجلا طويل القامة ووسيما. مشى في الممر وكأن المنزل منزله وسمعناه بعدها يقرع الجرس بكل ثقة.

قال هولمز محذرا: "أعتقد يا سادة أنه من الأفضل الاحتماء خلف

الباب. لا بد من توخي الحذر عند التعامل مع هذا الرجل. جهز الأغلال أيها المفتش. ودع الكلام معه لي".

انتظرنا صامتين لدقيقة، دقيقة بدت دهرا. ثم انفتح الباب ودخل الرجل. فسارع هولمز إلى تصويب مسدسه إلى رأسه بينما كبل مارتن يديه.

"أتيت بناء على رسالة من السيدة هلتون كوبيت. لا تقل لي إنها شريكة في هذا؟ وأنها ساهمت في نصب فخ لي؟"

"السيدة هلتون كوبيت أصيبت إصابة خطرة وهي على شفير الموت".

صرخ مسعورا: "أنت مجنون! هو من أصيب، ليس هي. من يقدر على إلحاق الأذى بالصغيرة إلي؟ لقد هددتها، نعم، وليسامحني الله، لكني ما كنت لألمس شعرة من شعرها الجميل. اسحب ما قلته! قل إنها بخير!"

"وجدت مصابة في حالة خطرة قرب زوجها الميت".

انهار الرجل في الحال وأخفى وجهه بين يديه المكبلتين. ومكث صامتا لخمس دقائق تقريبا.

"لقد هربت منك عندما اكتشفت أي نوع من الرجال أنت. غادرت أمريكا لتتجنبك وتزوجت رجلا شريفا في إنجلترا. لكنك

وجدتها ولاحقتها وحولت حياتها جحيما. وتسببت في النهاية بمقتل رجل نبيل وانتحار زوجته. هذا ما أنت عليه، سيد آبي سلائلي، وستتحمل مسؤوليتك أمام القانون".

أجاب الأمريكي: "لا آبه بما يحل بي لو ماتت إلسي. أريدكم أن تعرفوا أولا أيها السادة أني أعرف تلك السيدة منذ الطفولة. كنا سبعة أعضاء في عصابة في شيكاغو ووالد إلسي كان رئيسنا. كان رجلا ذكيا يدعى باتريك. وهو من ابتكر نظام التواصل السري هذا. وقد اكتسبت إلسي بعضا من أساليب عملنا لكنها لم تتحمل نمط عيشنا وقررت بالمال الشريف الذي تملكه أن تغادر إلى لندن. كانت مخطوبة لي وكنا سنتزوج لو كانت لي وظيفة أخرى. لم أعثر عليها إلا بعدما تزوجت من ذلك الرجل الإنجليزي. فكتبت إليها لكنها لم تجبني. وبما أن الرسائل لم تنفع، جئت إلى هنا ووضعت رسائلي في مكان تراه بسهولة.

مر شهر على وجودى هنا في تلك المزرعة. حاولت جاهدا اجتذاب إلسي إليَّ. كنت واثقا من أنها تقرأ رسائلي بما أنها أجابت مرة على إحداها. لكني ضقت ذرعا بهذه الحالة فبدأت أهددها. أجابتني عندها متوسلة أن أرحل لأن قلبها سينفطر لو طالت أية فضيحة زوجها.

وقالت إنها ستنزل عندما ينام زوجها في الثالثة فجرا وتتحدث إليَّ عبر النافذة شرط أن أرحل بعدها وأتركها بسلام. حضرت بالفعل لكنها أحضرت معها مبلغا من المال لتغريني به. وهذا ما أثار حفيظتي فأمسكتها بذراعها وحاولت مدوناتك بشيء خارج عن المألوف. ينطلق قطارنا في الثالثة وأربعين دقيقة وأعتقد أننا سنصل إلى شارع بيكر عند العشاء".

كلمة أخيرة

أنزلت المحكمة العليا الشتوية في نوروتش عقوبة الإعدام بالأمريكي آبي سلائلي؛ لكن عقوبته خففت إلى الأشغال الشاقة نظرا إلى الظروف المخففة وحتمية إطلاق هلتون كوبيت النار أولا.

أما السيدة كوبيت، فعلمت فقط أنها تعافت كليا وأنها بقيت أرملة ونذرت حياتها كلها لمساعدة الفقراء وإدارة أملاك زوجها.

تمت

تشارلز أغسطس
ملفرتون

وقعت الأحداث التي سأتحدث عنها قبل عدة سنوات، وقد تعذر لوقت طويل الإفصاح عن وقائعها لكن الشخص المعني لم يعد الآن في متناول القضاء. وهي تذكرني بتجربة مميزة في حياة السيد شيرلوك هولمز المهنية كما في حياتي.

كنا قد خرجنا، هولمز وأنا، كالعادة في جولتنا المسائية وعدنا في السادسة تقريبا في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، وحالما أضاء هولمز المصباح، وقع نظرنا على بطاقة موضوعة على الطاولة.

نظر إليها ثم رماها بشيء من الازدراء. تنالتها وقرأت: تشارلز أغسطس ملفرتون

أبراج أبلدور ــ هامبستيد ــ عميل

سألته:

"من يكون؟"

أجاب هولمز وقد جلس ومد رجليه أمام الموقد: "أسوأ رجل في لندن. هل كتب شيئا على الوجه الآخر؟"

قلبت البطاقة وقرأت:

"سأعود في السادسة والنصف".

"لقد شارف أن يصل".

"لكن من هو؟"

"سأشرح لك يا واتسون. إنه ملك الإبتزازيين. وطريقة عمله هي التالية: يعلن عن استعداده لدفع مبالغ كبيرة من المال مقابل حصوله على رسائل فاضحة بحق أشخاص وأثرياء مرموقين.

يضع ملفرتون يده على كل ما هو قابل للتفاوض، ومئات الأشخاص في هذه المدينة يرعبهم بمجرد ذكر اسمه. ولا أحد يعرف من ضحيته التالية، وهو قادر على الاحتفاظ بورقة رابحة سنوات بانتظار الفرصة السانحة. أكرر ذلك لأنه أسوأ رجل في لندن".

لم أسمع صديقي أبدا يتحدث بهذا القبض من المشاعر.

سألته: "لكنه سيقع حتما في قبضة القانون؟"

"من الناحية النظرية نعم، لكن عمليا لا. فأية مصلحة لامرأة أن تستحصل على سجنه لبضعة أشهر مثلا إذا كان ذلك سيؤدي إلى هلاكها لاحقا؟

إن إيا من ضحاياه لا يجرؤ على طعنه في ظهره. علينا إيجاد وسيلة

أخرى للنيل منه".

"لم حضر اليوم؟"

"لأن زبونة مرموقة كلفتني حل قضيتها. إنها الليدي إيفا براكويل، أجمل شابة في الحفلات الراقصة العام الماضي. وهي ستتزوج بعد أسبوعين من إيرل دوفنكورت. لكنها كتبت عدة رسائل متهورة إلى مرافق شاب. وهي كافية لفسخ خطوبتها.

وقد هدد ملفرتون بإرسال الرسائل إلى الإيرل ما لم يتقاض مبلغا كبيرا من المال. وقد كلفت مقابلته والتوصل إلى أفضل تسوية ممكنة معه".

في تلك اللحظة بالذات، سمعنا قعقعة وصليلا في الشارع. نظرت إلى الأسفل فرأيت عربة تتوقف ويترجل منها رجل قصير القامة بدين. وما هي إلا لحظات حتى دخل الغرفة.

تجاهل هولمز يده المددودة ورمقه بوجه متجهم. فاتسعت ابتسامة ملفرتون أكثر وهز كتفيه وخلع معطفه ووضعه بعناية بالغة على أحد الكراسي ثم جلس.

قال مشيرا إليَّ: "هل هذا الرجل موضع ثقة؟"

"الدكتور واتسون صديقي وشريكي".

"حسنا سيد هولمز. إنما اعترضت لما فيه خير زبونتك. فالمسألة حساسة جدا".

"الدكتور واتسون على علم بالموضوع".

"سأدخل إذا مباشرة في صلب الموضوع، أنت تعمل إذا نيابة عن الليدي إيفا. هل فوضتك قبول شرطي؟"

"ما هي شروطك؟"

"سبعة آلاف جنيه".

"هل من خيار؟"

"سيدي العزيز، تزعجني مناقشة هذه المسألة لكن إذا لم يتم تسديد المبلغ في الرابع عشر من هذا الشهر، فلن يتم الزواج في الثامن عشر منه. ولا شك أنك لا تعرف الإيرل جيدا".

فهمت توا من تقاسيم هولمز أنه يعرفه تماما.

"ما الضرر في الرسائل؟"

"إنها مفعمة بالحياة- بالحياة والحيوية. فالليدي مراسلة ممتازة.

لكني أؤكد لك أنها لن تعجب الإيرل دوفنكورت. لكن إذا ارتأيت أنه من مصلحة زبونتك تسليم هذه الرسائل إلى الإيرل، سيكون من السذاجة دفع هذا القدر من المال لاستعادتها".

ونهض ممسكا معطفه.

ثار غضب هولمز عندها لشدة امتعاضه.

"مهلا لحظة. إنك تستعجل الأمور كثيرا. سنبذل ما يوسعنا لتجنب الفضيحة في مثل هذه المسألة الحساسة".

جلس عندها ملفرتون مجددا في مكانه.

أردف هولمز:

"فضلا عن أن الليدي إيفا ليست ثرية. وأؤكد لك أن ألفي جنيه مبلغ كبير مقارنة مع ثروتها وأن المبلغ يفوق قدرتها. لذا أطلب منك إعادة النظر في مطالبك وإعادة الرسائل بالسعر الذي حددته لك وهو أقصى ما ستحصل عليه".

ابتسم ملفرتون ابتسامة عريضة ولاح بريق السخرية في عينيه.

"أنا واثق تماما من أن ما تقوله عن ثروة الليدي صحيح. يا إلهي! يا إلهي! يا لسوء الحظ! انظر إلى هذا!"

وتناول دفتر جيب أخرج منه رسالة صغيرة.

"إنها تعود إليَّ- من الأفضل كتم الاسم حتى صباح الغد. لكنه سيصبح في يد زوج الليدي بعدها. كل هذا لأنها لم تجد مبلغا بسيطا يمكنها الحصول عليه في غضون ساعة واحدة بمجرد بيع ألماسها. أمر مؤسف حقا.

أتذكر النهاية المفاجئة لخطوبة الآنسة مايلز المحترمة والكولونيل دوركنغ؟ لقد ورد خبر قبل يومين فقط من موعد الزفاف في جريدة مورنينغ بوست معلنا إلغاء القران. لماذا؟

أمر لا يصدق، لكن مبلغ اثنى عشر ألف جنيه كان كافيا لحل القضية. أوليس أمرا مؤسفا؟

وها أنت، ذلك الرجل المتزن، تفاوض حول الشروط، ومستقبل زبونتك وشرفها على المحك. إنك تفاجئني يا سيد هولمز".

فانتفض هولمز من مكانه صارخا:

"قف خلفه يا واتسون. لا تدعه يخرج! فلنر الآن محتويات هذا الدفتر".

كان ميلفرتون قد أفلت كالجرذ إلى الجهة الأخرى من الغرفة ووقف

مستندا إلى الحائط. قال وقد أدار الجهة الأمامية من معطفه وأبرز عبرها طرف مسدس كبير موضوع في جيبه الداخلي.

"سيد هولمز! سيد هولمز!

أؤكد لك أني مدجج بالسلاح ومتأهب تماما لاستعمال سلاحي خاصة وأن القانون معي. كما أنك مخطئ في اعتقادك أني أحمل الرسائل معي. لن أفعل شيئا متهورا كهذا".

ثم انحنى باسما وغادر الغرفة بلمحة بصر. جلس هولمز بلا حراك قرب المرقد، صامتا لنصف ساعة تقريبا. ثم نهض كمن اتخذ قرارا مهما ودخل غرفة نومه. خرج منها بعد لحظات متنكرا بزي عامل شاب ملتح ثم أشعل غليونه بالمصباح قبل أن يخرج.

"سأعود بعد قليل يا واتسون". قال هذا ورحل. فهمت عندها أنه أعلن معركة مفتوحة ضد ميلفرتون.

ظل هولمز يروح ويجيئ على هذا النحو لعدة أيام. لكنه ذات ليلة هوجاء عاصفة وبينما كانت الرياح تعصف وتصفق على زجاج النوافذ، عاد من آخر رحلة له وخلع تنكره وجلس قرب الموقد ثم راح يضحك بصوت خافت كما اعتاد أن يفعل.

"لن تصدق يا واتسون أني على وشك الزواج!"

"لا إطلاقا".

"سيسرك إذاً أن تعرف أني مخطوب".

"عزيزي هولمز. تهاني!"

"مخطوب إلى خادمة ميلفرتون".

"يا إلهي!"

"لم اضطر لذلك. أنا مجرد سمكري يدعى أسكوت. كنا نتمشى سويا كل مساء وفاتحتها بالموضوع. وحصلت على ما أريد. إني أعرف منزل ميلفرتون ككف يدي".

"لكن ماذا عن الفتاة؟"

هز "كتفيه لا مباليا".

"لم يكن أمامي حل آخر. عليك أن تلعب كل أوراقك عندما يكون أمر مهم كهذا على المحك".

صرخت مجيبا:

"بالله عليك يا هولمز، فكر بما تفعل!"

"هذا جزء من المخاطرة. وهذه الطريقة الوحيدة لاستعادة الرسائل. لا تملك المسكينة ما يكفي من المال وهي لا تثق بأحد من أنسبائها.

وستنتهي المهلة غدا وستقضي عليها ما لم نحصل على الرسائل الليلة. فإما أن أترك الأمور تأخذ مجراها أو أن أراهن بهذه الورقة الأخيرة".

"لا يروق لي الأمر؛ لكن لا مفر منه على ما يبدو. متى نبدأ؟"

"لن تذهب إذاً. أقسم- وأنا أحترم دائما قسمي- أن أستقل أول عربة وأتوجه إلى مركز الشرطة وأسلمك ما لم تدعني أشارك في مغامرتك".

"لا يمكنك مساعدتي".

"وما أدراك؟ أنت لا تعرف ما قد يحصل. لقد اتخذت قراري.

بدا هولمز مستاء وربت على كتفي.

"حسنا يا عزيزي، فليكن. لقد تشاطرنا نفس الغرفة لسنوات وسيكون الأمر مسليا لو تشاطرنا في النهاية نفس الزنزانة. كل شيء على ما يرام. هل لديك حذاء لا يحدث صوتا؟"

"نعم لدي واحد مطاطي".

"ممتاز، وقناع؟"

"سأصنع واحدا من الحرير الأسود".

"ممتاز. سننطلق قرابة الحادية عشرة".

استقلينا عربة في شارع أكسفورد وتوجهنا إلى العنوان المقصود في هامستيد. سددنا الأجرة عندما وصلنا وسلكنا طريقنا بعدما أدثرنا بمعاطفنا لشدة البرد والرياح الهوجاء.

قال هولمز:

"علينا توخي الحذر. فالأوراق موجودة في خزانة في مكتب ميلفرتون".

تسلقنا الجدار إلى المنزل الغارق في صمت عميق والأقنعة الحريرية السوداء تغطي وجهينا. كانت شرفة طويلة تمتد على إحدى الجهات وتتخللها عدة نوافذ وبابان.

همس هولمز:

"هذه غرفة نومه. وهذا الباب يقود إلى المكتب مباشرة. إنه يناسبنا لكنه موصد جيدا وسنحدث ضجة لو حاولنا فتحه. تعال من هنا.

هناك دفينة تقضي إلى قاعة الاستقبال".

كان الباب موصدا، لكن هولمز رفع دائرة زجاجية صغيرة وفتح الباب من الداخل، ثم أغلق الباب وراءنا بعد لحظات وأصبحنا مجرمين في نظر القانون. أمسك يدي في الظلام وقادني معه ببطء. كان هولمز يتمتع بقدرات مميزة وماهرة على الرؤية في الظلام.

فتح الباب وهو لا يزال يمسك بيدي وأدركت أننا دخلنا غرفة فسيحة دخن فيها أحدهم سيجارا منذ وقت قصير. تلمس طريقه عبر الأثاث ثم فتح بابا آخر وأغلقه وراءنا.

وفجأة، هجم شيء ما صوبنا فشعرت بالدم يتجمد في عروقي، لكن كم ضحكت عندما أدركت أنه مجرد هر. كان الموقد لا يزال مشتعلا في الغرفة الجديدة والجو عابق هنا أيضا برائحة السيجار. دخل هولمز على رؤوس أصابعه وانتظرني حتى أدخل ثم أغلق الباب برفق. وصلنا أخيرا إلى مكتب ميلفرتون وكان ستر باب في الجهة المقابلة يدل على مدخل غرفة نومه.

دنا من الباب ووقف هناك لبرهة يسترق السمع لكن أي صوت لم يصدر من الداخل. في هذه الأثناء، رحت أتفحص الباب الخارجي

الذي قد نهرب منه في حال الطوارئ. وفوجئت أن أراه موصدا. فأشرت إلى هولمز الذي استدار نحوي بوجهه المقنع. ولاحظت أنه تفاجأ هو الآخر".

"كيف يمكنني المساعدة؟"

"قف قرب الباب. إذا سمعت أحدهم يقترب، أوصد الباب من الداخل فنهرب من حيث دخلنا. أما إذا أتوا من الجهة الأخرى، نخرج من الباب إذا كنا قد أنهينا مهمتنا. مفهوم؟"

أجبت بنعم واتخذت موقعي قرب الباب. كنت أراقب هولمز يفتح حقيبة أدواته ويختار الأداة المناسبة بعناية وبدقة الجراح العلمية الذي يستعد لإجراء عملية جراحية حساسة. وكنت أعلم أن فتح الخزائن هي إحدى هواياته المفضلة.

عمل هولمز لنصف ساعة بتركيز تام فكان يخرج أداة ثم أخرى ويستعملها جميعا بمهارة الأخصائيين. سمعت في النهاية قرقعة فتح على إثرها الباب الأخضر الواسع ورأيت في الداخل رزم ورق مكدسة ومربوطة ومعنونة.

تناول هولمز إحداها لكن كان من الصعب قراءة ما كتب عليها

على ضوء الموقد. فأخرج مصباحا صغيرا من جيبه لأنه لم يشأ المخاطرة بإنارة الغرفة نظرا إلى وجود غرفة نوم ميلفرتون قربنا. ولاحظت فجأة أنه توقف عن القراءة وراح يصغي ووضع أغراضه في جيبه واختبأ خلف ستار النافذة مشيرا إلى أن أحذو حذوه.

سمعت حالما انضممت إليه الصوت الذي أنذر حواسه المرهفة. تردد صوت ما في المنزل ثم أغلق باب بعيدا. تلاه همس غامض وخطوات متسارعة تقترب منا.

ها قد وصلت إلى الممر المفضي إلى الغرفة. توقفت الخطوات عند الباب، ثم فتح الباب وأنيرت الغرفة وأغلق الباب مجددا وتسربت إلى أنفينا رائحة السيجار. استمرت الخطوات تروح وتجيء على بعد بضع ياردات منا.

ثم سمعنا صريف كرسي وتوقفت الخطوات. أزحت برفق أحد الستارين مسترقا النظر. فرأيت قبالتنا وعلى مرمانا ظهر ميلفرتون العريض والمكور. من الواضح أننا أسأنا توقع تصرفاته وأنه لم يكن أبدا في غرفة نومه. ولم يبد أنه سيرحل عما قريب بما أنه جلس بارتياح مكانه.

شعرت عندها بهولمز يشد على يدي ليطمئنني أنه يسيطر على الوضع. لم أكن واثقا من أنه رأى هو الآخر ما رأيته أنا من كون باب الخزانة مشقوقا قليلا وأن ميلفرتون قد يلاحظ هذا في أي وقت. لكنه لم يفعل لأنه كان مستغرقا في مطالعة بعض الأوراق.

لكن قبل أن ينتهي منها، طرأ أمر مفاجئ حول اهتمامنا إلى اتجاه آخر.

لاحظت مرارا أن ميلفرتون كان ينظر إلى ساعته نافد الصبر. ثم تناهى إلى مسامعي صوت خافت من الشرفة. ورأيت ميلفرتون يترك أوراقه ويسوي جلسته. تكرر الصوت ثم سمع قرع خفيف على الباب. فنهض ميلفرتون يفتح الباب.

"لقد تأخرت نصف ساعة تقريبا".

هذا يفسر إذاً عدم إيصاد الباب وبقاء ميلفرتون مستيقظا حتى هذا الوقت المتأخر من الليل. سمع حفيف رداء سيدة. وكنت قد أسدلت الستارين بما أن ميلفرتون أصبح قبالتنا لكني أردت المجازفة فأعدت فتح أحدهما. وإذا بها امرأة في فستان أسود نحيلة ممشوقة تغطي وجهها بحجاب. كانت تلهث وترتعد لشدة الانفعال.

خاطبها ميلفرتون قائلا:

"حسنا، عكرت علي نومي، آمل أن يستحق ذلك العناء. ألم يكن بإمكانك الحضور في ساعة أخرى؟"

فهزت رأسها بالنفي.

"لكن، ما بالك ترتعدين هكذا؟

هوني عليك!

تمالكي أعصابك!

فلننتقل فورا إلى صلب الموضوع. تقولين إنك تملكين خمس رسائل فاضحة لكونتيسة ألبيرت. أود شراءها منك وبقي علينا تحديد السعر. وأريد أيضا الاطلاع عليها وإذا تبين أنها مجدية... يا إلهي! أهذا أنت؟"

كشفت المرأة النقاب عن وجهها من دون أن تجيب.

"هذه أنا، المرأة التي أفسدت حياتها".

ضحك ميلفرتون لكنه أجاب بصوت مرتجف: "هذا ثمن عنادك. لم اضطررتني إلى فعل هذا؟ لم أبالغ في المبلغ ومع ذلك لم تدفعي ما يتوجب عليك".

"فبعث بالرسائل إلى زوجي، إلى أنبل رجل على وجه الأرض، ففطرت له قلبه ومات. أتذكر عندما دخلت ليلة أمس من هذا الباب كم توسلت إليك واستجديت رحمتك لكنك هزئت بي كما تحاول أن تفعل الآن، لكن قلبك الجبان لا يمكنه أن يمنع شفتيك من الارتجاف.

نعم، لم تظن أبدا أن تراني بعد الآن، لكن ليلة الأمس علمتني كيف أواجهك وجها لوجه ولوحدي. حسنا تشارلز ميلفرتون، قل ما عندك".

أجاب وقد نهض من مكانه:

"لا تظني أنه بإمكانك استضعافي. يكفي أن أرفع صوتي وأنادي الخدم فيتم إلقاء القبض عليك. غادري الغرفة من حيث دخلت، هذا كل ما عندي لأقوله".

وقفت المرأة وقد أخفت يدها في صدر ثوبها وقد علت شفتيها نفس الابتسامة المميتة.

"لن أدعك تفسد حياة الآخرين كما أفسدت حياتي ولن تعتصر قلوبهم كما اعتصرت قلبي. سأحرر العالم من افتك الفاسدة. خذ هذا أيها النذل! وهذا! وهذا!"

كانت قد سحبت مسدسا براقا صغيرا وأفرغت طلقاته على جسم ميلفرتون، فهوى على الطاولة وهو يرتعد فوق الأوراق من شدة الألم. ثم نهض مجددا لكنه تلقى طلقة أخرى أوقعته أرضا.

"فعلتها!" صرخ ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

لم يكن تدخلنا لينقذ حياته؛ لكني هممت بالمسارعة إلى نجدة ميلفرتون بينما كانت المرأة تطلق الرصاصة تلو الأخرى عليه، لولا شعرت بقبضة هولمز الباردة على معصمي. ففهمت من هذه القبضة الصلبة والمحكمة أن المسألة ليست من شأننا. سمعنا في نفس الوقت أصواتا تتعالى في المنزل وخطوات متسارعة.

فقد أيقظت الطلقات النارية الجميع. تسلل هولمز ببرودة أعصاب مذهلة إلى الخزانة وأخذ منها ما اتسعت يداه من الرسائل وألقاها جميعا في النار. كرر هذا عدة مرات إلى أن فرغت تماما. ثم سحب المفتاح من الباب الخارجي وخرج من بعدي ثم أوصده من الخارج.

"يمكننا الآن تسلق جدار الحديقة من هنا".

لم أكن لأصدق أن إنذار قد ينتشر بهذه السرعة؛ لكني ما أن التفت إلى الوراء حتى رأيت الأنوار تشع في أرجاء المنزل.

بعد أن تناولنا الفطور، جلسنا ندخن الغليون الصباحي في صباح اليوم التالي بعد هذه التجربة المميزة. وفجأة، دخل السيد ليستراد من أسكوتلند يارد إلى غرفة جلوسنا المتواضعة.

"صباح الخير سيد هولمز. هل لي أن أعرف هل أنت مشغول كثيرا في هذه الأيام؟"

"لدي بعض الوقت كي أصغي إلى ما عندك".

"افتكرت في أنه ربما أمكنك مساعدتنا في التحقيق في قضية مثيرة حصلت ليلة البارحة في هامستيد".

أجاب هولمز:

"يا إلهي! ماذا حصل؟"

"جريمة قتل مذهلة ومروعة. أنا أعرف مدى اطلاعك على هذه الحالات وأطلب منك أن تتشرف بإعطائنا بعض النصائح. فهي ليست جريمة عادية.

ونحن كنا نراقب ذاك السيد ميلفرتون منذ مدة والحقيقة أنه خسيس بعض الشيء. ولا يخفى عنك أنه كان يحتفظ بأوراق فاضحة يستخدمها لابتزاز الناس.

وقد أحرق القاتلان جميع تلك الأوراق من دون سلب أي أغراض ثمينة، مما يعني أنهما رجلان مرموقان هدفهما الوحيد تفادي الفضيحة".

رد هولمز متعجبا: "مجرمان! بصيغة المثنى!"

"نعم، كانا اثنين. عثرنا على آثار أقدامهما ولدينا مواصفاتهما. الأول نشيط بعض الشيء على عكس الثاني الذي قبض عليه مساعد البستاني لكنه أفلت منه بعد عناء.

وهو متوسط الحجم، قوي البنية ذو فك مربع وعنق عريض وله شارب ويضع قناعا على وجهه".

"وصف غامض بعض الشيء، قد ينطبق على واتسون مثلا".

أجاب المفتش مبتسما:

"صحيح، قد ينطبق على واتسون".

"أخشى أنه لا يمكنني مساعدتك يا ليستراد. فأنا كنت أعرف ميلفرتون وكنت أعتبره أحد أخطر الرجال في لندن. وأعتقد أنه لا يجدر بنا الخوض في بعض الجرائم التي تبرر نوعا ما الانتقام الشخصي. لا جدوى من مناقشة الموضوع معي. لقد اتخذت قراري. أنا متعاطف مع المجرمين أكثر مما أنا متعاطف مع الضحية ولن أتولى هذه القضية".

لم يذكر هولمز شيئا عن المأساة التي شهدناها، لكني لاحظت طوال الصباح أنه كان شارد الفكر يحاول أن يتذكر شيئا ما. وبينما كنا نتناول الغذاء، نهض فجأة صارخا:

"يا إلهي! وجدتها يا واتسون! اعتمر قبعتك وتعال معي!"

هرع بأقصى سرعته من شارع بيكر إلى شارع أكسفورد حتى وصلنا إلى دكان ذي واجهة زجاجية على الجهة الشمالية من الشارع، وفيه صور لمشاهير ولجميلات كثيرات.

أخذ هولمز يحدق بإحداها وسرعان ما قادني بصري أنا أيضا إلى صورة سيدة بلباس البلاط وعلى رأسها تاج من الألماس يزين رأسها النبيل. وما كان مني إلا أن أحبس أنفاسي عندما قرأت أنها زوجة أبرز النبلاء ورجال الدولة. والتفت عيناي بعيني هولمز الذي وضع إصبعه على شفتيه ونحن نبتعد عن الواجهة.

ملتت